جائزة عبدالحميد شومان لأدب الأطفال

(الرواية الفائزة بالجائزة دورة ٢٠١٣)

كوخ الأسرار

عامر بختي بخوش

رواية لليافعين...

خـرج إبراهيـم من بيـتـه، ذات زوال ربيـعي مـشـمس، واتجـه كعـادته في أمـاسـي النـزهة صـوب الـغـابة المحـاذية للـمـدينـة، التي يسكنهـا. انطلق يحثّ خطاه في طريقـه يريد اغـتنام سـويعـات من الصفاء والسكينة في أحضـان الطبيعة. فلطـالما كان يلجأ إليها في أوقات فراغـه الضيقة، يحمل معه كتابا شائقا تسعده مطالعته وهو يفـترش العشب. أو يسند ظهره إلى جذع شـجرة، ويعـرض جسـمه للأشـعـة الدافئـة.. لم يمر عليـه وقت طويل حـتى كـان داخل تلك الأروقة المتعرجة المتشعبة من الأشجار المختلفة في طولها وألوانها المتدرجة في الاخضرار، كان ينقل طرفه من ناحية إلى أخرى، وهو سـعيد بهذا المشهد الذي تعود على رؤيته ومعـايشته، لكنه لم يسـأم منه. وكم تمنى في نفسه لو كان منـزله أقرب ما يكون لتلك الغابة التي كـان مـولعا بـزيارتهـا كلما كـان ذلك ممكنا. خفف من سـرعـة مشـيه، وأخذ يبـدل رجليه ببطء. يحـاول العـثور على مكان مـلائم للراحة والمطالعة. كان الجو صحوا، والشمس ترسل أشعتها الذهبية التي غابت عنه مدة طويلة تحت غيوم شتاء مر قارسا وطويلا. ظل إبراهيم كـذلك ينقل بصـره هنا وهناك، حـتى بدت له من مـسـافـة قريبة، أجمة من الأشجار الكثيفة التي تشابكت أغصانها، وتقاربت جذوعها، حتى بدت لمن يراها من بعيد. كأنها خيمة عالية جدا. جمعت أوتادها فـي منتصف ظلها، وأشرعت أطرافها لتغطي دائرة واسعـة من الأرض. اتجـه نحوها، رافعا رأسـه إلى أعلى ينظر إلى

قمم أشجارها المتعددة، التي كانت بارزة ومتجاورة ككثبان الرمل. على بساط أخضر معلق نسجته أغصانها وأوراقها. وقف عندها مشدوها، يتأمل ذلك البناء الهندسي العجيب، وهو يستشعر قدرة الله الخالقة لكل شيء. ويتأسف على عدم زيارته قبل ذلك، لتلك الناحية من تلك الغابة الواسعة. لقد كان يأتي دائما ليزور نواحي أخرى منها. تعوّد عليها منذ وقت طويل. اقترب من جذوعها الخشنة كثيرا. وحاول أن يخترق جدارها ببصره. لعله يرى ما يوجد وراءها. لكنها لقربها من بعضها، وكثافة أغصانها المتدلية. لم يتمكن من رؤية أي شيء. فكر في البداية أن يقعد داخل تلك الخيمة. ويشرع في مطالعة كتابه الذي كان يصحبه. لكنه عدل عن رأيه بعد ذلك. وقرر أن يبحث عن مكان آخر. يكون مقابلا للشمس. فظلال تلك الأجمة كانت باردة. والجو لم يكن حارا. فغفل راجعا يبحث عن مكان ملائم. وأثناء ذلك كان يقلب برجله الأوراق اليابسة، التي سقطت فيما مضى. وهمدت هناك. وحين أزاح كومة منها بدت له الأرض من تحتها جرداء. لم تنبت شيئا من قبل، فتعجب لذلك، وشرع يزيح كل ذلك القش اليابس. الذي كان أمامه. حتى اتضحت له آثار باهتة، لطريق ضيق يأتي من الخارج. و يتخذ مساره بين الجذوع. كانت الأوراق اليابسة قد طمرته بعدما تراصت فوقه أجيال كثيرة منها، كان الخريف يأذن لها بسقوطه الأصفر كل عام فخمرتها الرطوبة، والتصقت ببعضها، وشكلت نسيجا غطى ذلك المسلك القديم الذي طواه النسيان، بعدما انقطع الناس عن السير عليه منذ زمن ليس بالقريب. بقي إبراهيم مدة وهو يخمن في ذلك الطريق المجهول بين الأشجار وأين يمكن أن يؤدي بسالكه

وأحجم في البداية عن الدخول إلى مجاهيل تلك الأجمة. التي لم يتوقع وجودها من قبل في تلك الغابة. التي كان يظن نفسه يعرف الكثير من طرقها، ومعالمها. لكن حب المغامرة، ورغبته العارمة في الاكتشاف. دفعا به إلى استجماع رباطة جأشه، واتخاذ قراره بالدخول.

شرع يخطو خطوات صغيرة متقاربة من بعضها، وهو يرهف سمعه وسط طقطقات أعواد الأغصان اليابسة، تتكسر تحت وطأة قدميه محدثة خشخشة دفعت الكثير من الحشرات إلى إعلان نفيرها، والتحرك من مواقعها، محاولة بذلك تفادي الخطر المفاجئ الذي أحدق بها. كان مطأطئ الرأس. يحاذر على عينيه من ملامسة أطراف الأغصان المدببة المتدلية بازدحام. ويدفع الحشائش المتسلقة حول الجذوع لتمكنه من الرؤية أمامه ولو قليلا.. تسلل ببطء داخل تلك المغارة النباتية. ولم يدم الوقت كثيرا حتى تجاوز تلك الأجمة. وخرج إلى نصف دائرتها من ظلها الكبير في الناحية الأخرى. سار في متسع من الأرض بعد ذلك، لكنه ما إن رفع رأسه حتى فاجأه ما رآه لقد ظن نفسه يحلم، أو أن نور الشمس الساطع الذي غمر عينيه فجأة بعدما كانتا فيما يشبه الظلام داخل تلك الأجمة. وأثر ضوؤها المباغت على بصره، وهو يرى الآن خيالا أو سرابا لا يمكن لعاقل أن يخطر على باله. لقد تربى في المدينة ونشأ بها. وكان يعلم أن بعض الناس يسكنون الأرياف وفي السهول المنبسطة التي تسمح لهم بتربية الماشية، و حرث الأرض. لكنه لم يكن يتوقع أن يسكن بعضهم الغابات الكثيفة ويركنون بيوتهم إلى جانب الأجمات الكبيرة التي لا تشق الطريق

داخلها إلا بشق الأنفس. كان يرى أمامه والدهشة تهز جوانحه، كوخا صغيرا يرتفع فوق الأرض بمقدار مترين أو يكاد. بقيت حجارته عارية من جهتها الخارجية دون تمليط. لقد تم بناء هذا الكوخ وسط بستان صغير هو الآخر من الأشجار المثمرة. تركت مهملة بلا عناية ولا سقي أو تشذيب. وكان عددها قليلا لا يتجاوز العشرين. وأمام الكوخ كانت تقف شجرة غير مثمرة، لكنها عملاقة يمتد أحد فروعها القوية في اتجاه أفقي فوق الكوخ مباشرة، ويكاد ظلها يغطي ثلث البستان. سار نحوها ببطء فوجد بجانبها قبرا قد دفن صاحبه داخله منذ مدة ليست قريبة، فقد دلته على ذلك حشائش يابسة من السنة الماضية أو ما قبلها، وحشائش خضراء نبتت بذورها تلك السنة على تراب دمنته.

بقي إبراهيم يطوف ببصره مدة من الزمن والحيرة تخالجه. فكان تارة ينظر إلى ذلك الكوخ الخفيض الذي أغلق بابه وترك على حاله، وتارة أخرى يركز بصره عما كان قريبا منه من تلك الأشجار العطشى التي تركت هي الأخرى مهملة بلا عناية ولا سُقيا. اللهم إلا ما تجود به السماء من أمطار، لا تفي لها بحاجتها الدائمة إلى الماء. ويرفع بصره مرة أخرى إلى محيط ذلك البستان الذي تحفه أشجار الغابة الكثيفة، ثم يعود بالنظر إلى تلك الشجرة العملاقة، يتبع أغصانها العالية في الفضاء. ثم يُنزل عينيه إلى الأرض، ويتأمل ذلك القبر المهجور وسط ذلك الخراب.

أعاد مسح المكان بعينيه مرة ثانية فوجد أن الأشجار قد غرست بتخطيط دقيق وعناية فائقة، حتى غدت فيما مضى من الزمن روضة من رياض الجمال في تلك الغابة الحافلة بالهدوء.

فهي مرصوفة في صفوف، ومصطفة في الطول نفسه بالتقريب. تتنوع فاكهتها بين المشمش والكمثرى والتفاح. وتتباعد عن بعضها بالمسافة نفسها التي تترك مجالا للبستاني، حتى يتمكن من سقيها ونكشها في راحة تامة. وقد شقت سواقي تتخلل المساحات الفاصلة بينها، وتمر بها الواحدة تلو الأخرى، حتى تروي الصف الأول في خط مستقيم، ثم تمر إلى الصف الثاني وهكذا... كانت تجلب الماء المتحدر داخلها من نبع يقع أعلى مرتفع صغير بجانب الحافة. كانت قد بنيت حوله دائرة من الحجارة المصطبغة بالطحالب، وتركت في جانبها كوة صغيرة تسمح بمرور الماء لسقي تلك الأشجار. لقد وجد إبراهيم تلك البركة التي تحيط بالنبع آسنة قد اصفر لون مائها، وتغير طعمه من شدة طول احتباسه وعدم جريانه.. ثم راح يسير ببطء صوب ذلك الكوخ. وفي نفسه الكثير من الأسى عما آل إليه أمر تلك الأشجار التي تركت تصارع عطشها، وتنتظر موتها البطيء.. اقترب من الجدار قليلا وتوقف وتساءل في نفسه إن كان هناك شخص ما، يسكن داخله. لقد نادى بأعلى صوته حين تخطى الأجمة، وانتظر لعل أحدهم يجيبه. لكنه كان كل مرة ينادي بكل ما في صوته من قوة، وفي كل مرة كان لا يجيبه أحد.. والدلائل كلها تفيد بأنه لا يوجد أي شخص هناك.. أعاد النداء هذه المرة أيضا، وفي نفسه رهبة أمام الباب الصغير، الذي لا يمكن الولوج منه إلا بطأطأة الرأس، بسبب هبوط عتبته العليا على مستوى سقفه. لكنها سرعان ما تراجعت تلك الرهبة.. أمام حب الاكتشاف لديه الذي كان يلح عليه بالدخول. تقدم ووقف أمامه، وطرق عليه.. كان الباب من الحطب وبقي ينتظر إن كان هناك من يجيب من الداخل

بصوت ما، أو ينهض فيفتحه لزائر لم يتوقع قدومه، أعاد الطرق حتى تأكد من أنه غير مسكون. حاول فتح الباب فدفعه بيده. فلم ينفتح وحاول ثانية فبقي على حاله ولم ينفتح.. نظر إبراهيم إلى إطاره. فوجد مزلاجا صغيرا كان قد ثبت على طرفه. ليستعمل قفلا خارجيا. وقد غطاه الغبار المتراكم عليه فلم يظهر له منه إلا جزء يسير. كما كانت على ذلك الباب في جهته السفلى الكثير من بقع التراب التي تلقي بها الأمطار العاصفة في لطخات مبللة بالماء، تلتصق بالأخشاب وحين تجف تبقى هناك، مادام لا يزيلها أحد.. عالج المزلاج الصغير فتراجع لسانه الحديدي بسهولة إلى الوراء، ودفع الباب فانفتح قليلا محدثا صريرا متقطعا وتطايرت حوله هالة من الغبار الذي تكدس حول إطاره من زمان.. دفعه مرة أخرى حتى انفتح على آخره في أقصى زاوية ممكنة، حيث استدار نصف دورة كاملة وارتطم بالوجه الداخلي للجدار من ناحيته الخلفية. كانت حبيبات الغبار في البداية تشكل سحابة كثيفة تسبح في وهج الشمس الذي اقتحم الكوخ. وقبل أن يخطو إبراهيم خطوته الأولى، أطل برأسه، ونظر إلى الداخل فلم يستطع الرؤية بوضوح. وأحس برائحة حادة من الرطوبة تصل خياشيمه، كان مصدرها بعض الأثاث الذي ترك مكوما فوق بعضه البعض، ولم يتعرض لأشعة الشمس منذ زمن طويل. انتظر حتى انقشعت تلك الغمامة، وصار بعدها يستطيع رؤية الأشياء وتمييزها عن بعضها. ثم دخل. فوجد بعض الأفرشة والأغطية القديمة التي تركت على حالها فوق الأرض. وفي الجهة الأخرى من ذلك الكوخ الضيق بعض أواني طبخ بسيطة أغلبها من الطين، تكدست بالقرب من موقد للنار في

الزاوية. تتخلل مدخنة السقف المنخفض، فيه ثلاث أثافي سوداء، يتوسطها رماد. كما كانت الجدران القريبة منه مصطبغة بالسواد الذي كانت نار الحطب تنفث دخانه إلى أعلى. بدأ في تقليب ذلك الأثاث البسيط، وهو يحاذر على ثيابه من الاتساخ بما علق به من غبار... لقد بقي إبراهيم مدة كافية بين أرجاء ذلك الكوخ البسيط يتنقل بين زواياه المتقاربة بهدوء وحذر، يحاول تقدير موضع قدمه قبل الخطو حتى لا يدوس أشياءه.. إلا أنه حين هم بالخروج رأى كتابة بخط معوج وكبير في منتصف الجدار المقابل للباب. استوقفته العبارة المكتوبة مدة طويلة وهو يقرأها ويعيد. ثم يفكر ثم يعود لقراءتها من جديد.. وأخذ يتسرب إلى نفسه أنه شرع يخوض مغامرة شائقة ومثيرة.. حدّق في الجدار الذي لصقت به مسحة خفيفة من سواد دخان الموقد، وتهجأ للمرة الأخيرة العبارة التي كانت حروفها ناصعة البياض، استعمل كاتبها آلة حادة في نحتها بسهولة على طينه الرخو. والتي كان يقول فيها: (وصية إلى ولدي سالم:ارع الأشجار، وأطعم الطيور، واحرس الكوخ من جهاته الأربع. ستجد كنزا قد خبأته لك). خرج بعد ذلك وأغلق الباب مثل سابق عهده، ثم سار.. توقف عند ذلك القبر الذي يجهل صاحبه، ولم يكتب على شاهده أي اسم يدل عليه.. ولمعت في ذهنه فكرة أن صاحب القبر هو نفسه صاحب الوصية. لكنه سرعان ما استبعد ذلك، لأن صاحب القبر قد دفنه أحدهم هنا في هذا المكان. ولا داعي أن يترك وصيته على ذلك الجدار مادام يمكنه أن يوصي غيره بتنفيذها.. وبقي الكثير من الخواطر يتوارد على ذهنه وهو يحاول التخمين والاستنتاج في علاقة تلك الوصية بالقبر،

وعلاقتهما معا بهذا الكوخ والبستان، ودور سالم في هذا كله.. بدأ يطوف وسط ذلك البستان المهمل وباله مشغول بهذا الأمر الذي لم يكن يتوقع حصوله. وأخذت رغبته تلح عليه في مواصلة الاكتشاف، وتشحذ ذهنه المتقد في محاولات عديدة لمعرفة هذه الأسرار التي تركن منزوية ومتخفية في ثنايا تلك الغابة الكثيفة. لقد حاول تفسير الوصية عدة مرات.. لكنه لم يستطع الاهتداء إلى الحل الذي يؤدي إلى مكمن ذلك الكنز. وراح يتساءل وهو يتجول ببطء، كيف تؤدي رعاية الأشجار، وإطعام الطيور وحراسة الكوخ إلى موضع الكنز..؟ ثم من هو سالم هذا الذي ترك له أبوه هذه الوصية في هذا الكوخ المهجور..؟ لايمكن أن يكون والده هو صاحب هذا القبر. دون شك إنه ليس هو. وإذا كان هو، فمن قام بدفنه في هذا المكان المعزول أمام باب منزله؟ ثم ألم يجد هذا الرجل شخصا يعرفه ويثق به، يترك عنده هذا الكنز ليعطيه فيما بعد لابنه سالم..؟ قد يكون صاحب الكوخ هو نفسه صاحب القبر، وهو نفسه صاحب الوصية. وبالتالي فإن مفتاح اللغز يوجد عند من بقي حيا. عند سالم هذا الذي أوصى له أبوه بالكنز. لكن هناك طرف ثالث بينهما، هو من قام بدفن صاحب الكوخ فلو كان سالم هو الذي قام بالدفن لما احتاج أبوه إلى كتابة وصيته على الجدار ولأعطاه ذلك الكنز قبل أن يموت.. ومن يكون هذا الشخص الثالث..؟ كان الكثير من هذه الأسئلة والهواجس يتنازع روحه المتوفرة إلى المعرفة والاكتشاف. وظلت تتزاحم في ذهنه، وتلح في طلب إجابات سريعة عنها.. بينما كان هو يمشي الهوينى شاردا بين أشباح تلك الأشجار التي شارفت على الموت من شدة الإهمال. ولم يبق لديها ما يدل

على الحياة إلا وريقاتها القليلة الخجلى، التي تفتحت البراعم عنها بعناء رغم فصل الربيع الخصيب.. كان يكسر غصنا يابسا هنا، ويتحسس بيده جذعا متشققا هناك حتى قضى أمسيته كاملة تحت وطأة الشرود والأسف. ولم ينتبه إلى الوقت الذي سحب الشمس خفية عنه إلى أقصاها، وأنزلها في غفلة منه حتى كادت تلامس خط مغيبها. وحين انتبه تعجب من سرعة انقضاء تلك الساعات التي كانت تمر عليه بطيئة في المدينة، والتفت عائدا إلى البيت، يشق طريقا مباشرا يقرب المسافة في الوصول إليه، يحمل بين جوانحه وكامل كيانه قصة ذلك الكوخ المهجور ببستانه ومائه والوصية العالقة بجداره.

لم يخبر إبراهيم أي أحد من أفراد أسرته بما وجده في تلك النزهة، وضرب صفحا عن ذلك السر الذي وجده رابضا منذ مدة -لايعلم مداها إلا الله -في إحدى زوايا الغابة. لقد اكتسب صفة التكتم التي كانت تلازمه، من شدة تعلقه بالطبيعة التي لا تذيع أسرارها بسهولة. فهو يعلم أن الكائنات جميعها تتكلم مع بعضها البعض، وتتحاور بحميمية دائمة بينها.. فالعصافير تنادي بعضها في سقسقاتها المرحة الصاخبة وتفهم عن بعضها نداءاتها المختلفة، وتستجيب لبعضها بفضل هذه النداءات التي لا نفهمها نحن البشر، إلا بالدراسة والتأمل العميق.. والنسيم يناجي النباتات بهباته الموسيقية فينعشها ويلقح أزهارها.. وهو يعزف ألحانه المتناغمة على سويقاتها وأوراقها.. والماء الذي لا يكل ولا يمل في سعيه الدائم إلى عناق التربة التي تولد بها الحياة من جديد كل عام.

كان إبراهيم يعلم أن لكل مخلوقات الطبيعة لغتها التي تتراوح

بين الصمت والأصوات المكررة، وكانت له محاولات عديدة وصعبة في قراءة بعض الكتب التي يتحدث مؤلفوها عن هذا الصنف من الحوار.. مثل لغة الطيور... اللغة الكيميائية للنحل.. حتى وإن لم يفهم معظم ما جاء فيها. إلا أنه كان كلما قرأ كتابا عظمت عنده قدرة الله التي لا تحد، الذي خلق كل شيء بقدر. وما كانت زياراته المتعددة لتلك الغابة إلا استمرارا لمحاولاته فهم كائنات الطبيعة والاندماج معها. لقد كان يعلم أن الملاحظة المستمرة والدقيقة هي الأخرى مفيدة كالمطالعة.. وكثيرا ما كان يمزج بينهما في الرحلة الواحدة فيصطحب معه كتابا ما لمطالعته هناك.

راجع دروسه تلك الليلة، بدرجة أقل حماساً مما كان يفعله دائما. وحضر واجباته المدرسية على عجل. وحين آوى إلى فراشه ارتسمت أمام عينيه وهو بين النوم واليقظة، صورة ذلك الكوخ الذي تركه أهله وارتحلوا أو ماتوا، وبقي في وحدته وعزلته عرضة للنسيان والإهمال. وبقيت جدرانه واقفة تكتم سر وصية من ودعوها ولم يعودوا. ولا تبوح منها إلا بما يشبه الأحجية أو الألغاز... واستمرت وفية في صبرها تنتظر عودة من بقي منهم على قيد الحياة. لعل أحدهم يدفعه الحنين إلى زيارتها، فتهدي له قليلا من الوقت يعيشه في جو ذكرياتها الغابرة بما تحفظه له من عبق الماضي.

استفاق في الصباح باكرا كعادته. وقبل أن يباشر تحريك أعضائه ونهوضه من فراشه قفزت إلى ذهنه مسرعة تلك الصورة التي هدهدته قبيل نومه. تبادر له في البداية أن ذلك الكوخ كان حلما راوده في نومه. لكنه سرعان ما استدرك ذلك. وتذكر أنه

حقيقة عاشها على أرض الواقع.. وصل إلى المدرسة وبقي عاقدا عزمه على إبقاء ذلك الاكتشاف سرا لا يبوح به لأحد. فلم يخبر به أي أحد من زملائه. فلقد خشي أن يذهب أحدهم إلى ذلك الكوخ، ويعبث بأثاثه. وقد صار أمانة في عنقه وعليه صيانتها بالكتمان عن الناس. حتى يعود سالم هذا -إن كان حيا -أو أحد آخر له حق التصرف والبحث عن ذلك الكنز.. وفي انتظار ذلك عليه تكثيف زياراته الفردية لذلك الكوخ وتحمل مسؤوليته ما استطاع لأجل ذلك.. ولا يدخر وسعا في حمايته ومحاولة معرفة ورثته.

توالت زياراته لذلك الكوخ في أماسي الثلاثاء التي تتخذها المدارس عطلة تدوم نصف يوم في منتصف الأسبوع. وكان خلالها حريصا على معرفة ما إذا كان أحد الفضوليين أو العابثين قد اكتشفه.. فكان يدقق نظره في التراب لعله يجد آثار قدميه. ويدخل إلى الكوخ فيتفقد أثاثه، إن كان قد تم تغييره من مكانه أو نقص منه شيء. وبقي على تلك الحالة من الحرص والحذر والشك، حتى تأكد من أنه لا أحد يعلم بوجود ذلك الكوخ. وإن كان هناك من يعلم بوجوده فإنه لا يريد المجيء إليه.. وأنه الوحيد الذي يتردد على زيارته كل أسبوع. وقرر في نفسه أن يبدأ في تنفيذ تلك الوصية في جانبها الواضح. فصاحبها يأمر ابنه سالما برعاية الأشجار وإطعام الطيور وحراسة الكوخ. وسيكافأ على هذا العمل بكنز مخبأٍ في مكان ما، ولم يكن إبراهيم مهتما بالحصول على هذه المكافأة التي ستكون من نصيب سالم الذي هو ابن المتوفى وأحد ورثته.. ولكن عليه من باب الأمانة التي تعهد بأن يصونها، أن يشرع في رعاية الأشجار وهو أمر واضح، لا يحتاج إلى تفسير. فها

هي الأشجار اليابسة أمامه، وها هو الماء على بعد أمتار قليلة فقط. وعليه أن يبدأ في العناية بها لعله يعيد لها حياتها السابقة التي كانت عليها. أما إطعام الطيور وحراسة الكوخ من جهاته الأربع، فلم يهتد فيها إلى شرح أو تفسير يمكن اتباعه والسير عليه. فلا توجد طيور في ذلك البستان الذي لا يزوره أحد حتى يمكنه إطعامها، والقيام على شؤونها. كما أن حراسة الكوخ من جهاته الأربع فيه بعض اللغز الذي لم يوفق في إيجاد سبيل لحله. وهكذا استقر رأيه على العمل في البستان. واصطحب معه في المرة التالية من زياراته رفشا وشرع في إصلاح ذلك البستان.

قصد النبع الآسن، وأخذ يخرج ما ترسب في قاعه القريب من أتربة، وحشائش يابسة ألقت بها الريح في عمقه. وتحسّس بيده مكان الكوة المصرفة للماء بين الحجارة فوجدها مسدودة من الداخل. أزاح ما وضع داخلها من خرق تمنع الماء من السيلان وما تراكم فيها من حمأٍ، نشأ بسبب حجز الماء مدة طويلة، كان يقف في طريقه ويمنعه من التدفق. وما إن أزاحه حتى بدأ في هديره نحو الأشجار – ذلك الماء – الذي قدر له أن يبقى سجينا بين الصخور لمدة طويلة. وأخذ طريقه الأفعوانية بين الأشجار يسقيها الواحدة تلو الأخرى. لقد كانت قنوات السقي قد شقت بطريقة هندسية يكتفي فيها المزارع بتوجيه الماء إلى الشجرة الأولى فقط. ثم ينتقل بطريقته الذاتية وقوة اندفاعه إلى الشجرة الثانية، عندما تأخذ الأولى منه كفايتها. وهذا ما أدهش إبراهيم الذي راح يرقب مقدمته المحملة بذرات التراب. ويستمع إلى خريرها. وهو يخترق تلك السواقي الجافة، التي كانت تحضنه كأنه صديق قديم طالت

غيبته وعاد فجأة للقاء. جلس على صخرة وبقي يتشمم رائحة التراب الطيبة التي استفزها الماء من مكمنها المستكين تحت وطأة الجفاف. فتفوح في الأرجاء وتنعش النفوس بالبهجة وتبشرها بقدوم الحياة عما قريب.. نهض بعد ذلك يحمل معه الرفش. وراقب كل السواقي. وأصلح بعضها الذي أدى به الزمن إلى بعض التصدع في حافتها فوضع على جوانبها أكواما صغيرة من التراب حتى لا يتسرب من خلالها الماء وقضى مساءه كاملا هناك ينظر بعين الأسى والأمل إلى تلك الأشجار المتشققة، وهي تتلقى أولى قطرات الحياة التي تروي عروقها الظمأى. وتعيد لها نضارتها ورونقها الذي افتقدتهما منذ زمن طويل.

كان البستان مربع الشكل في مساحة صغيرة توزعت فيه أشجار المشمش في صفين شمال الكوخ. واستقامت أشجار التفاح هي الأخرى في صفين جنوبه. وعلى الجانبين غرست أشجار الكمثرى. ومن ناحية الشرق أمام باب الكوخ نمت تلك الشجرة غير المثمرة. وبالقرب منها يقع ذلك القبر المجهول. وتحيط الغابة به من كل الجهات بأشجارها الكثيفة، وأدغالها. وتشكل حوله سورا حصينا له. وكانت تلك الأجمة التي دخل من خلالها إبراهيم تمثل أهم عنصر في ذلك السور. وفي الزاوية الشمالية الغربية يقع ذلك النبع على ربوة بسيطة من الأرض.

عاد إبراهيم في الأسبوع الموالي، فقصد الكوخ مباشرة، وأخذ منه الرفش وذهب إلى النبع ففتح الكوة المصرفة للماء. وتركه يتدفق صوب الأشجار التي وجدها قد تهيأت براعمها الحبلى للتفتح بعدما ارتوت من الماء وتعرضت طيلة أسبوع كامل لشمس

شهر أفريل الدافئة. تجول بينها مدة وهو سعيد النفس بما أنجزه. ثم خطر بباله أن يخرج ذلك الأثاث من الكوخ ويقوم بتنظيفه. وكان قد أحضر معه مكنسة صغيرة لأجل ذلك فأخرج الأفرشة والأغطية القديمة. وفاجأه وجود مصحف شريف للقرآن الكريم بين ثنايا ذلك الأثاث. كان ذلك المصحف مغلفا بغطاء جلدي سميك تفحصه ثم وضعه على رف صغير. بعد أن مسح غباره، كانت موضوعة فوقه مسرجة صغيرة صدئة. ثم خرج إلى تلك الأغطية فنشرها على حبل كان قد ربطه بين شجرتين أمام الباب. بعد أن نفضها من الغبار الذي كان قد عشّش في عمقها. وترك رطوبتها المتعفنة تتعرض لدفء أشعة الشمس. بعد ذلك دخل وكنس أرضية الكوخ جيدا وجمع ما ساقته المكنسة من تراب وخشاش مع ما كان يوجد من رماد بين أثافي الموقد ورمى كل شيء في الخارج. وحمل تلك الأواني البسيطة. وأولى عناية خاصة للطينية منها خشية أن تتكسر إحداها. وذهب بها إلى النبع فغسلها جيدا هناك. وعاد بها إلى الداخل. فرتبها في الزاوية التي تلي الباب وغطاها بقطعة بالية من القماش. ولما قرب موعد ذهابه إلى البيت، عمد إلى تلك الأغطية فطوى كل واحد منها بعناية. وأدخلها إلى الكوخ ووضعها في مكانها النظيف. ووضع الرفش والمكنسة في مكان قريب من الباب، ثم أغلقه كما تعود وعرج على النبع فأغلق الكوة المصرفة للماء. وتركه يتجمع داخل الحوض الصغير طيلة أسبوع. وأسرع خطاه عائدا إلى البيت والحبور يملأ نفسه بهذا الإحسان الذي قدمه لوجه الله.

كان إبراهيم تلميذا نجيبا في المدرسة. فلطالما كان يحصل على

المرتبة الأولى بين أقرانه، الذين عرف بينهم بحسن السلوك والانضباط والمثابرة في تحصيل العلوم وكثيرا ما كان يثني عليه أساتذته بهذه الخصال، التي نادرا ما اجتمعت لدى أحد من زملائه. لقد فهم دروس التربية الإسلامية جيدا ومنها درس الأمانة التي تتلخص في العدل والإحسان اللذين أمر الله سبحانه وتعالى بهما. فكان يحدث نفسه وينصحها بضرورة الالتزام بالعدل الذي يقتضي منه في هذه الحالة ألا يهتم بأمر الكنز الذي هو ليس له. فالوصية تشير إلى شخص آخر عليه أن يبحث عنه ويأخذه. وهو أحق به من غيره. وهكذا كان دائما يزجر نفسه أن تزيغ به وتدفعه إلى البحث عن مال ليس له. ولكنه مطالب حسب شريعة الإسلام السمحة أن يكون محسنا إلى غيره -حتى وإن كان لا يعرفه -وعليه أن يبذل جهده قدر مستطاعه ووقته الضيق لإحياء تلك الروضة التي شارفت على الفناء، وأن يصون ذلك الكوخ الذي عفا عليه الزمن. حتى يعود إليهما صاحبهما.

لم يكن إبراهيم يخفي شيئا عن أبيه. فكان دائما يصارحه بأي مشكلة وقعت له، وينتظر منه توجيهه الصائب في كيفية التعامل معها. أو تدخله لمساعدته إن كانت عويصة عليه.. إلا أنه في هذه الحالة رأى أن يتريث في إخباره، وينتظر مدة لعله يعرف صاحب الكوخ فيتركه يتولى أمره.. ويعود هو إلى دراسته مثلما كان من قبل. وما دامت مدة الانتظار قد طالت فما عليه إلا أن يخبر أباه بقصته، لعله يدلي له برأي يساعده فيها.. فاغتنم فرصة اجتماع العائلة ذات ليلة في نهاية الأسبوع حول مائدة العشاء. وبادره بطرح الموضوع وهو يتوسم فيه توجيه النصائح التي تكون له سندا في

تحمل تلك الأمانة. لقد كان إبراهيم حديث السن ويظن أنه الوحيد الذي يعرف مكان ذلك الكوخ المنسي في نقطة لا تكاد تذكر وسط تلك الغابة الفسيحة. بالإضافة إلى أهله الغائبين عنه. لكنه لم يفاجئ والده حين تعرض له بالذكر. بل تفاجأ هو نفسه حين علم أن الأب يعرف ذلك الكوخ جيدا، ويعرف كل الطرق المؤدية إليه. ويستطيع تحديد مكانه بدقة. كما كان يعرف صاحبه الذي سكنه فيما مضى من الزمان. لقد كان شيخا تقيا وكريما رحمه الله. وهنا ظن إبراهيم أنه قد عرف بعض الحل من ذلك اللغز الذي استعصى عليه. واعتقد أن صاحب القبر المعزول تحت تلك الشجرة هو نفسه هذا الشيخ الذي يعرفه أبوه. فبادر يسال أباه.

– ولماذا تم دفنه وحيدا داخل بستانه؟ فهناك قبره أمام باب الكوخ.

وهنا توقف الأب عن الكلام وحاول فهم ما كان يقوله إبراهيم.

– تقول أن هناك قبرا داخل ذلك البستان أمام باب الكوخ؟

– أجابه إبراهيم: نعم يا أبي وظننت أنه لصاحب الكوخ الذي كنت تعرفه تقيا وكريما. – الأب: ولكن هذا الشيخ الذي كنت أعرفه، قد توفي منذ زمن بعيد. أنا لم أحضر جنازته. ولكن الكثير من الناس الذين كانوا هنا قد حضروها وشاركوا في دفنه في مقبرة المدينة. ونستطيع البحث عن قبره ومعرفته. فمن أين جاء ذلك القبر الذي تتحدث عنه يا ترى؟

– إبراهيم: مادام ذلك الشيخ الذي تعرفه قد دفن في مقبرة المدينة. فإن هذا القبر الذي حدثتك عنه هو لشخص آخر، لا نعرف سبب دفنه هناك. ولكن أرجو منك يا أبي أن تحدثنا ولو

قليلا عن ذلك الشيخ الذي كان يسكن الكوخ وكنت تعرفه.

عاد الأب إلى أيام شبابه البعيد، بعدما تناولوا عشاءهم. وتحلق حوله كل أفراد الأسرة في تلك السهرة الاستثنائية. وفتح المجال لذاكرته تسرد على أبنائه وزوجته بعض الحوادث التي تعرض لها في حرب التحرير الوطني، التي كان يخوضها الشعب الجزائري ضد الجيش الفرنسي المستعمر. والملاحم البطولية التي احتضنتها تلك الغابة بأشجارها الباسقة وجبالها الشاهقة ووديانها العميقة. ونصيب ذلك الكوخ وصاحبه من البطولة والتضحية التي قدمها الشعب الجزائري كله في سبيل الله والوطن. شرع الأب يتحدث بصوت متهدج ورتيب: كنا خمسة من المجاهدين، تلقينا أمراً من القيادة بضرورة التنقل بين أحراش الغابة إلى منطقة قريبة، بغية جلب المؤونة لإخواننا الذين تركناهم وراءنا متمركزين على قمم الجبال، ومرابطين في الثغور. كنا نسير الواحد تلو الآخر، نترك مسافات بيننا للأمان، وتقليل الخسائر إذا ما باغتنا العدو. لكننا حين اقتربنا من ذلك الكوخ الذي كنت تتحدث عنه. وفي المنعطف المؤدي إلى تلك الأجمة القريبة منه، والتي كانت تشكل بوابة متخفية للبستان الذي تغطيه وتحجب الرؤية عنه، هناك وقعنا في كمين كان قد أعده الجيش الفرنسي مسبقا لنا أو لغيرنا من نشطاء ثورة التحرير. كانت المسافة الفاصلة بين المجاهد الأول والخامس تقارب العشرين مترا. بمعدل خمسة أمتار تفصل المجاهد الواحد عن الذي يكون أمامه، أو الذي يأتي بعده. كنت الخامس الذي يسير وراءهم في الصف. كنا نسير وفق الإيعاز. فالثاني لا يخطو خطوة واحدة إلا إذا تلقى إشارة متفقاً عليها من

الأول. والثالث لا يتحرك قيد أنملة إلا إذا تلقى الإشارة نفسها من الثاني، وسمح له بالحركة. وهكذا .. كانت المعابر صعبة ومحروسة في أغلبها بجنود متخندقين على جنبات الطرق، ومموهين بالحشائش التي تصعب علينا تمييزهم، واكتشافهم من بعيد. كما كانت الكثير من تلك المسالك التي تخترق الغابة - في شكل شبكة معقدة -مفخخة بالقنابل التي زرعت فيها لتحد من حرية حركة المجاهدين وتنقلهم. باغتنا جنود ذلك الكمين في المنعرج بجانب تلك الأجمة الكبيرة التي كنت تحدثني عنها. وانهال علينا الرصاص من كل جانب، وكان علينا أن نرد على الهجوم بشراسة. ونحن نحاول حماية أنفسنا وراء الصخور الكبيرة والجذوع القوية... دقائق قليلة كانت كافية لنهاية المعركة وصمت الرصاص. بقيت في مكاني لا أتحرك مدة تمكنت خلالها من مسح الساحة بعيني، وتدبر أمر انسحابي دون أن يصوب تجاهي أحد قناصتهم سلاحه فيرديني قتيلا. ثم شرعت أنادي على رفاقي الذين كانوا معي.. ورغم الحزن الذي ألم بي ذلك اليوم، وفراق إخواني. فإني أقول بأن نهاية المعركة كانت لصالحنا. لقد قتلنا كل الجنود الفرنسيين، وعددهم ستة. واستشهد منا أربعة هم رفاقي الذين كانوا يتقدمونني في خط السير، وتلقوا رصاص العدو بصدورهم نيابة عني. انتهت المعركة وحاولت الابتعاد عن مكانها. لكنني لم أقدر على السير. واكتشفت أني كنت مصابا بعدة طلقات في كتفي ورجلي. وأخذت الدماء تنزف غزيرة من جسدي. وكان علي أن أربح الوقت بالانسحاب السريع، حتى لا يقبض علي العدو الذي سرعان ما يأتي ويشرع في تمشيط المكان.. فزحفت على بطني، وبندقيتي

على ظهري، أريد الاختباء بين جذوع تلك الأجمة. كنت أجهد نفسي، وأحاول أن أسرع في الزحف. لكنني قضيت وقتا طويلا في قطع تلك المسافة القصيرة. و ما إن وصلت إلى الأجمة وهممت بالدخول إليها، حتى انفتح فيها ما يشبه النافذة أو الباب الصغير. وظهرت لي يد من داخلها كانت تزيح الحشائش المتسلقة جانبا. ثم ظهر لي بعدها وجه ذلك الشيخ التقي. خرج إلي وحملني على كتفيه وأدخلني إلى البستان. ونادى على ابنة له تدعى عائشة كانت في العاشرة من عمرها. وحين جاءته تجري أمرها أن تساعدني حتى أدخل إلى الكوخ. وأسرع هو إلى رفش كان ملقى هناك، فأمسكه، وتركنا وخرج عبر الأجمة التي أدخلني من خلالها. وصلت بعناء كبير إلى ذلك الكوخ رفقة ابنته الشجاعة. التي لم تستطع حملي. وبقيت فيه ممددا على حصير، وهي واقفة أمامي لا تدري المسكينة ماذا يمكنها أن تفعل لي. وبقينا ننتظر.. لم يطل غياب ذلك الشيخ عنا. فسرعان ما عاد إلينا يحمل حزمة من السلاح. لقد جمع كل القطع التي وجدها وعددها عشر قطع. أربع منها كان يحملها رفاقي الشهداء. وست قطع أقوى منها وأشد فتكا غنمها من قتلى العدو. وضع ذلك السلاح جانبا، وأمر ابنته فأحضرت دلوا من ماء النبع وضعه على الموقد وساعدني رفقتها في نزع ملابسي التي خضبتها الدماء ببقع كبيرة. ثم شرع يطهر لي جروحي بالماء الساخن ويستخرج بعض شظايا الرصاص من جسدي بوسائله البدائية.. كانت العملية مؤلمة جدا، لكنها نجحت في إنقاذ حياتي بفضل الله. أعطاني ملابس قديمة من عنده. ووضع لي فراشا قرب الموقد وطلب مني أن أنام. لكنني رفضت النوم وقلت له: إن

العدو يتبعني وبسهولة يستطيع أن يعرف مكان تواجدي وسيقضي علينا جميعا. لكن ذلك الشيخ المؤمن الذكي طمأنني بأنهم لن يأتوا إلى كوخه ولن يعرفوا الطريق المؤدية إليه. لقد محى برفشه حين خرج للمرة الثانية كل آثار الدم التي كنت أتركها على الأرض وأنا أزحف على بطني طلبا للاختباء. ولم يترك أية إشارة تدل على أن أحد الجرحى قد زحف باتجاه الأجمة. وهنا سمعنا جلبة كبيرة خارج البستان.. لكن الشيخ بحدسه كان يعلم أنه لا اطمئنان في الحرب. وعليه توخي الحذر والاستعداد لأي احتمال قد يجلب لنا شرهم. فقفز من مكانه وأخذ بندقية وربض بالقرب من الباب تحسبا لأي طارئ. بعدما أعطانا إشارة – من أصبعه الذي وضعه على شفتيه – تفيد بضرورة التزام الصمت. كنت أسمع صراخ جنود العدو وهم في كامل غضبهم. يحاولون معرفة من أخذ سلاح القتلى جميعا.. كانت كلابهم تنبح وهم يحثونها على تشمم أية رائحة للدم على الأرض قد تؤدي إلى مكمني، أو وجود أي أحد آخر قد نجا من نيران غدرهم. لقد أعمى الله سبحانه وتعالى بصيرتهم، ولم يستطيعوا تحديد أي اتجاه يمكن أن يسلكوه.. وفي النهاية اقتنعوا بضرورة حمل جثث قتلاهم والعودة بها من حيث أتوا.

وبقينا نحن على تلك الحالة. كانت أوجاعي مبرحة، وجروحي غائرة. والشيخ لم يدخر وسعا في معالجتي وتشجيعي على نسياني آلامي وتمسكي بالصبر، حتى غربت الشمس فأحضرت لنا ابنته عشاءهما البسيط.. وحين عسعس الليل اقترب مني ذلك الشيخ، وافترش الأرض. كنت قد تعافيت بعض الشيء، وخف عني الألم قليلا فأخرج قلما ودواة، ومجموعة من الأوراق. وطلب مني أن

أسرد عليه الحادثة التي وقعت من بدايتها إلى نهايتها، وبالتفصيل الذي لا يترك أي شيء. كما طلب مني أن أعطيه أسماء الشهداء الذين سقطوا في المعركة ذلك المساء. وما إن بدأت أتحدث حتى شرع هو في الكتابة، على ضوء مسرجة باهت كان يتراقص بيننا.. متخذا من المصحف الشريف قاعدة صلبة على ركبتيه، وضع فوقها مجموعة الأوراق حتى تستقيم له في الكتابة. كنت أملي عليه ببطء وهو يدقق ويدون بهدوء. ولم أنتبه إلى الطفلة التي اختفت حركتها عن نظري، ورأيتها في الزاوية الأخرى من الكوخ متدثرة بغطاء بال وتغط في نوم عميق.

كان الليل قد قارب منتصفه حين انتهيت من رواية الحادثة. وأنا أنطق الجمل ببطء، وأنتظر الشيخ حتى ينتهي من تدوينها، ولا يفوته منها شيء. وشعرت بعد ذلك مباشرة بالنعاس يغالب عيني، وأحسست في نفسي ميلا إلى الراحة قرب ذلك الموقد الذي كان الشيخ يغذيه من حين لحين بعيدان الحطب.. فنمت ولم أستفق إلا على صرير الباب الخشبي وقت الفجر. وحين فتحت عيني بجهد رأيتهم داخل الكوخ. كانوا أربعة، اثنان من الرفاق المجاهدين كانا يحملان سلاحهما. ومعهم الشيخ الذي يبدو عليه أنه لم ينم طيلة ذلك الليل. وكان رابعهم رجل لا أعرفه يحمل حقيبة.. وسرعان ما عرفت أنه طبيب، حين طلب مني أن أخلع ثيابي ليشخص جروحي. وأخرج بعض المراهم والأدوية الأولية للعلاج. وحين طلب مني أحد الرفاق أن أسرد على سمعه تفاصيل الحادثة. بادر الشيخ إلى إخراج تلك الأوراق التي قضى ما يقرب من نصف الليل وهو يكتبها. ثم طواها ضمن دفتي المصحف الشريف. مخبرا إياه بأنه

قد سجل على لساني كل شيء. لأنه كان يخشى علي من الموت. ولا يتمكن أحد من معرفة الحقيقة وكيف حدثت. فاغتنم فرصة الراحة التي شعرت بها - في هدأة ذلك الليل - وقام بتوثيقها.. قرأ ذلك المجاهد تلك الأوراق حتى نهايتها. ثم شكر للشيخ صنيعه ذاك وأعادها إليه ونصحه بأن يخبئها في مكان آمن. فمسكها الشيخ ووضعها داخل غلاف المصحف الجلدي وأعاد طيه من جديد. لقد حاول الرفاق في تلك الليلة أن يصطحباني معهما. وقررا حملي على أكتافهما. لكن الطبيب منعهما من القيام بذلك وأمرني بضرورة الركون إلى الراحة، والتقليل من الحركة حتى أشفى تماما. وخرج ثلاثتهم مع تباشير الفجر. مودعين لنا، بعد أن اقتسموا حزمة السلاح التي أخذوها معهم. وبقيت أنا في ضيافة ذلك الشيخ مدة سبعة أيام بلياليها حتى تماثلت للشفاء. كنت أقضي معظم وقتي خلالها ممددا على الفراش. أما هو فكان يشغل وقته بالعمل في ذلك البستان وقراءة القرآن الكريم. وحين سألته عمن أخبر المجاهدين والطبيب بوجودي في ذلك المكان الذي لم يستطع جنود العدو اكتشافه. حدثني بأنه ما إن نمت حتى فتح الباب بهدوء تام حتى لا يجعلني صريره أفطن. وانطلق إلى المجاهدين في أحد ثغورهم التي كان يعرف بعضها. وأخبرهم بوجودي عنده، وبالحالة التي كنت عليها جراء ما تعرضت له من طلقات النار. فرافقه في عودته رجلان منهم بعدما أحضرا طبيبا من مكان آخر. وجاءوا جميعا إلي.. ومنذ تلك الأيام لم ألتق بذلك الشيخ حتى سمعت بعد الاستقلال بأنه قد توفاه الله إلى رحمته.. إلا أن الإخوة المجاهدين رأوا إقامة مركز لعلاج الجرحى في ذلك الكوخ. واستشاروا الشيخ

في ذلك. فوافق على رأيهم بحماس.. وهكذا كانوا ينقلون الجرحى من المعارك إلى ذلك الكوخ الحصين الذي لم تستطع قوات العدو اكتشافه، حتى حصلنا على الاستقلال. فأنا لم أزره إلا في تلك المرة التي جرحت فيها. إلا أن بعض الرفاق كانوا يحدثونني عن كثرة الجرحى الذين كانوا ينقلونهم إلى ذلك المستشفى البسيط في ضيافة ذلك الشيخ الكتوم، وابنته النشيطة. وصار المجاهدون يكثفون زيارتهم لذلك الكوخ المحصن والمؤمن.

لما رأى الشيخ توافد العديد من الجرحى على كوخه لأجل العلاج والراحة. اهتدى بذكائه إلى طريقة مكنته من كتابة تاريخ الثورة في حينه. فأحضر سجلاً كبيراً يتكون من مئات من الصفحات. وضع على غلافه الخارجي عنوانه المناسب فأسماه (كتاب الشهداء) وكان يغتنم فرصة وجوده مع الجرحى الناجين من المعارك فيسردون عليه قصصهم، وتفاصيل المعارك التي خاضوها ببطء. وهو يسجل. كان لا يفوته أي تفصيل مهما كان تافها أو بسيطا. ويدقق في التواريخ بشكل تام ومنظم. ويسجل تاريخ استشهاد أي شخص. والمكان الذي سقط فيه. كما كان يسجل أسماء الشهود الجرحى الذين أخذ على أفواههم رواية المعارك التي كان يخوضها أفراد الشعب في تلك المنطقة. لقد كان ذلك السجل حافلا بالتاريخ الحي الذي كان يكتب باستمرار أثناء حدوثه. ولم يكن يعلم بأمر هذا السجل إلا القليل من المجاهدين. فقد حدثني بعضهم عنه بعدما انتهت الثورة. إذ كان الشيخ يكتب على لسان الجرحى شهاداتهم في أوراق كان يضعها أمامهم داخل غلاف المصحف. حتى يوهمهم. بأنها النسخة الوحيدة التي كتبها؛ لأنه كان

يخشى أن تمسك قوات الاستعمار بأحدهم. ويضطر تحت طائلة التعذيب الجهنمي الذي كانت تمارسه على الأسرى.. إلى الاعتراف. والإقرار بوجود تلك الأوراق التي أدلى فيها بشهادته. إذ كان الشيخ يلجأ في الكثير من الأحيان إلى الانفراد بنفسه وإعادة نقل تلك الشهادة على (كتاب الشهداء) الذي لم يكن يعلم بوجوده إلا قلة قليلة منهم. وحين يتم الكتابة التي عادة ما كان يقوم بها في سرداب خاص بذلك.. يحمل كتابه ويحمل الرفش معه، ويذهب إلى الخارج. أين يحفر له حفرة في الأرض تحت ظلام الليل يضعه داخلها، ويغطيه جيدا بالتراب. ثم يعود.. ويبقى ذلك التاريخ الناضح بالبطولة في مأمنه بعيدا أن تطاله عين العدو، وتكشف من خلاله الكثير و الكثير من الأسرار التي يمكنها استغلالها لإطفاء جذوة الثورة المباركة والقضاء على المجاهدين.

وختم الأب قصته الرائعة بأسفه الكبير حين قال: كم نحن في حاجة ماسة اليوم لذلك السجل. وإلى كل الوثائق التي كان يكتبها ذلك الشيخ. ولكن كما أسلفت لكم. يا للأسف عما ضاع منا.. لقد توفي الكثير من المجاهدين بعد الاستقلال دون أن يروا مسيرة الجهاد الذي قاموا به معززة بالوثائق والشهود. ولو عثرنا على ذلك السجل لاعتبرناه مرجعا لتاريخنا الثوري المجيد الذي لا يطاله التزوير.

أنهى الأب قصته التي كان قد عايش الكثير من أحداثها. واعتبرها إبراهيم الذي كان يستمع إليه بشغف، إحدى محطات تاريخ الثورة في تلك المنطقة. وتمنى في نفسه أن تتاح له فرصة كتابتها ذات يوم، حتى لا يطويها النسيان ككثير من الملاحم

البطولية التي حدثت. ولم يلتفت إليها أحد بالتسجيل، ولم يتمكن أحد من الاطلاع على تفاصيلها.. ثم شرع الأب في حديث آخر عن ذلك الشيخ. كان قد نقله له بعض رفاقه بعد عودته إلى مسقط رأسه. حين عاد من الصحراء بعدما سكن فيها عدة سنوات وشكل أسرته هناك.. يقول الأب: لم ألتق بالشيخ بعد ذلك قطُّ.. لا في سنوات الثورة، ولا في السنوات الأولى للاستقلال. حين كنت أسكن في مدينة بعيدة في الصحراء. وأخبرني بعض أصدقائي الذين بقوا هنا، أن ذلك الشيخ كان يأتي كل أسبوع إلى المدينة في يوم الجمعة لأجل الصلاة. وليبيع بعض غلاله - إذا كان فصل الصيف - وكان في الحقيقة يتصدق بالكثير منها على الفقراء. وكم مرة جلس معه بعض رفاقي ساعات طويلة، يتبادلون أطراف الحديث، ويستذكرون الأيام الخوالي التي عاشوها بحلوها ومرها أيام ثورة التحرير المباركة. وسأله أحدهم ذات مرة عن ابنته عائشة التي قد تكون صارت امرأة في ذلك الوقت. فأجابه الشيخ بأنها كبرت وتزوجت بأحد أبناء أقاربه في العاصمة. وهو يعيش الآن وحيدا في ذلك الكوخ. وبقي يلتقي بهم من حين لآخر حتى تقدم به العمر. وصار لا يزور المدينة إلا قليلا.. ثم أصابه مرض ألزمه المكوث بالمستشفى عدة أيام، توفاه الله بعدها. فأقاموا له جنازة ودفنوه بمقبرة المدينة، رحمه الله.. دون أن يعلم أي منا أين وضع ذلك السجل الذي كان يسميه كتاب الشهداء. هذا مجمل قصة ذلك الشيخ والكوخ الذي يسكنه. والمناسبة التي تعرفت فيها عليه، وجعلتني أمكث عنده أسبوعا كاملا. وأنت الآن تقول أنك وجدت هناك قبرا. كما وجدت وصية مكتوبة هناك على الجدار. فالقبر ليس للشيخ، هناك

شخص آخر دفن به. ولا أعلم إن كانت ابنته عائشة قد جاءت وباعت ذلك البستان مع الكوخ إلى شخص آخر.. فالشيخ لم يكن له أولاد، كانت له ابنة وحيدة هي عائشة التي حدثتك عنها.. أما الوصية فلا أعلم من هو كاتبها، ومن هو سالم هذا الذي أوصى له أبوه بكنز مخبأ كما تقول.

كانت القصة شائقة. استمع لها كل أفراد العائلة باهتمام. حتى إخوة إبراهيم الصغار كانوا يغالبون نعاسهم، ويصغون لحديث الأب بإعجاب. وحين هموا بالنهوض من مجلسهم والذهاب إلى فراشهم. استوقف الأب إبراهيم وشكره على شجاعته وحرصه على الأمانة. كما أثنى على تكتمه وعدم إخبار العابثين من زملائه بهذا الاكتشاف حتى يحافظ عليه. ونصحه بأن يبذل جهده ما استطاع في العمل داخل ذلك البستان، وألا يشغل نفسه بأمر ذلك الكنز حتى يحضر صاحبه الذي يستخرجه.

استمع إبراهيم بلذة كبيرة لهذه القصة المشوقة التي كان أبوه أحد أبطالها. وتذكر أنه عثر على مصحف بين أثاث ذلك الكوخ. ووضعه على رف المسرجة بعد أن نظفه. وفكر أن يفتح غلافه في المرة القادمة. لعله يجد بعض الأوراق التي كان يتحدث عنها الأب.. فقد استطاع الآن من خلال سماعه لهذه القصة أن يتأكد من أن صاحب القبر ليس هو صاحب الكوخ، أو المالك الأصلي له. وكل ما يمكن أن يرجح له الصواب هو أنه صاحب الوصية. وبحسب رواية أبيه فإن صاحب الكوخ الشيخ التقي لم يكن له أولاد ذكور. وهذا يوصي لابنه سالم. فمن هو سالم هذا، ومن هو أبوه الذي أوصاه، وأوصى له؟.

انتظر إبراهيم مرور ما تبقى من أيام الأسبوع. وهو على أحر من الجمر، ليسارع إلى ذلك الكوخ الذي بدأت أولى أسراره تتكشف له عن نفسها. وتبوح عن مكنوناتها وقد بقيت سنوات طويلة تفوق عمره بكثير طي النسيان أو الكتمان. وكم زاد هذا الأمر، من تمسكه الشديد، باعتقاده الذي يرى من خلاله، أن الحياة كلها أسرار. وعليه أن يتسلح بالصبر والفكر، ويستمر في البحث، والإلحاح في السؤال حتى تتكشف له عن الحقائق التي يجهلها.

زار إبراهيم ذلك الكوخ، وذهب مباشرة إلى ذلك المصحف الشريف ففتحه. وفتح طية الغلاف الجلدي ببطء فوجد أوراقا قليلة بيضاء. لعل الشيخ كان قد وضعها من قبل هناك.. كانت تلك الأوراق ناصعة البياض، ولم يجر عليها لسان القلم من قبل.. أزاح الغلاف كله ولم يعثر على شيء. لقد كانت دفتا المصحف جديدتين لم تفقدا رونقهما الأحمر. وهو اللون الذي دأبت عليه المطابع في إخراج المصاحف المكتوبة بالخط أو (الرسم) العثماني. كانت الزركشة الصفراء عليهما ما زالت تحتفظ بلمعانها الشمسي على الحافة. يتوسط الدفة الأولى في الأعلى اسمه المكتوب بخط كبير وجميل (قرآن كريم) وفي الأسفل في الوسط (لا يمسه إلا المطهرون). أعاد الأوراق إلى مكانها بعد أن فحصها في ضوء الشمس. وأعاد الغلاف إلى وضعه السابق على الكتاب. وقضى الأمسية جالسا على صخرة قرب النبع، يرتل ما تيسر من ذكر الله بعد أن تفقد الأشجار التي تفتحت جل براعمها من جديد، معلنة ثورتها على خجلها الذي طال عدة سنين. وعاد في المساء إلى البيت يحمل معه ذلك المصحف. فأراه لأبيه الذي أكد له على أنه نفسه

الذي كان الشيخ يحمله معه، عندما كان جريحا في ضيافته. وأراه إبراهيم تلك الأوراق البيضاء التي كانت داخل غلافه. فعرف أن الشيخ قد نزع تلك الوثائق التي سجل عليها روايته عن تلك المعركة. وعبر الأب عن أسفه الكبير مرة أخرى، على ضياع دلك السجل المليء بالشهادة وبالنصر. ونصح إبراهيم بالمحافظة على ذلك المصحف، وإعادته إلى مكانه في الكوخ. فلعل صاحبه أو أحد ورثته يعود لمتلكاته.

كان الربيع في منتصفه، ذات يوم ثلاثاء هبت فيه نسائم باردة كانت تبعث بها جبال الأطلس التلي الشامخة. التي تقف حزاما أخضر موشحا بالصخور العاتية والقمم المسننة. وتقسم الشمال الإفريقي بخط أفقي مستقيم، تاركة مساحة شاسعة للسهول المنبسطة التي ترتمي أطرافها البعيدة، ومدنها البيضاء في أحضان شواطئ البحر البيض المتوسط. وقف إبراهيم وسط البستان الذي أخذت أشجاره في الارتواء من حصتها الأسبوعية.. وأحس بالبرودة تدب في أوصاله بعدما قويت الريح بدمدمتها وهي تتبع مسارها المتلوي بين الجذوع والأدغال. وبقي في مكانه واقفا. متجها إلى الغرب. ينظر إلى الأفق العالي الذي تسمح به الأشجار الكثيفة المتراصة. أطلت عليه في السماء الصافية غيمة صغيرة هاربة، تسوقها الريح بعنف.. كانت في البداية.

وحدها تسبح بسرعة في ذلك الفضاء الأزرق.. اقتربت أكثر ثم أبطأت سرعتها قليلا حين توسطت السماء. لم يزح عينيه عنها إبراهيم. وظل يرقبها وهو يسبح الله سرا في تصريفه للسحاب. وفي تلك اللحظات أطلت عليه قمة لجبل من الغيم مثقل بالسواد

كانت الأشجار تخفي قاعدته العريضة عن عينيه. وظل ذلك السحاب المظلم يزحف... وازدادت قوة الريح في عتو.. فلجأ إبراهيم إلى جذع تلك الشجرة العملاقة فاحتمى بها، وظل يراقب ذلك المشهد الذي أخذ جوه في انقلاب تام. فارتفعت درجة البرودة أكثر من قبل. وبدت أشعة الشمس واهنة أمام ذلك الهجوم. ظلت مقدمة تلك الغيمة الكبيرة تسير بسرعة أقل - من جري الغيمة الصغيرة الأولى - وهي تتكاثر من بعضها البعض، وتتخذ دوائر غير مستقيمة في استدارة محيطها، ومتلاحمة في كتلة واحدة. كأنها الصوف المندوف الذي تمت صباغته بلون أسود حالك.. وأخذ الضوء ينقص بانعكاسها على الأرض. ولم يدم الأمر إلا دقائق حتى احتجبت الشمس التي كانت قد قطعت مسافة ساعتين بعد الزوال. واستجابت الغابة بخضرتها الرصاصية لذلك الظل الذي بسط جناحيه عليها. ولحقت أولى تباشير العاصفة تنقر بقطراتها الباردة على كل شيء يصادف سقوطها المائل السريع.. لتعلنه بالقدوم وتدعوه للاستقبال أو الاحتماء.. انشقت السماء بغتة على شجرة عملاقة جرداء من البرق، كان ألقه يكاد يخطف الأبصار في لحظاته الأولى، ثم انطفأ بسرعة ضياؤه وبقي جمره محمرا مدة كافية لرؤيته جيدا، والاحتفاظ بصورته الساحرة المهيبة في ثنايا الذاكرة. وحين وصل هزيم الرعد مدويا في أرجاء الغابة، كانت سياط المطر قد بدأت في تهاطلها المتزاحم على الأرض. فجرى إبراهيم إلى الكوخ وهو ينكس رأسه بين كتفيه ويزيح وجهه جانبا ليخفف عنه صفعات المطر الباردة. وقف في الباب بعدما فتحه وسرح بنظره في ابتهاج، وهو يشهد عناق السماء مع الأرض المرحبة

بقدومه. فرأى حبيبات التراب ارتفعت مسافة قليلة على وقع سقوط القطرات. وشكل مجموعها هالة من الضباب حجبت رؤيته للأرض. لكنها سرعان ما تشبعت بالماء. وثقلت وعادت إلى مستقرها النابض بالحياة. كما بدت جذوع تلك الأشجار منمنمة في البداية على قشرتها الشهباء وهي تتلقى أولى القطرات. لكنها اغتسلت كلية بعد ذلك واتشحت بالسواد. كانت البهجة لاتسع إبراهيم وهو يرى ويشهد ذاك العرس.. ويشم رائحة المطر الممزوج بخصوبة التربة الحانية. ويسمع طرقه المكتوم على السقف المغطى بالأغصان والقش وطبقة خارجية من التراب.

مرت العاصفة بسلام، بعد أن سقت زخاتها تلك الربوع. فتركت الحفر، والمنخفضات الصغيرة، والأثلام مترعة بالغدران. وجرت جداولها شلالات من الخرير والصخب تتقاطع في نقاط وتتوحد في مسيلها المشترك. وتواصل رحلتها حتى تصب في الوادي الجارف الذي يقسم الغابة في تلك الناحية إلى نصفين. وارتدت أوراق الشجر والعشب لونا قشيبا ونضرا بعد الغسيل. كما ظهرت أولى أشعة الشمس المحتجبة من جديد في سقوطها الجانبي على البلل الصقيل، فزادته لمعانا.. وانشرحت السماء بقوس قزح يرسم نصف دائرته، ويقبب شطرا من الغابة بألوان الطيف الزاهية الشفافة.. وسرى بعض الدفء المفعم بالحبور. وأخذت الأرض والنباتات تستجيب له ببعض البخار الخفيف. وتعلن انتصارها على برد الشتاء القارس، وجليده المجمد. وفي هذه الأثناء التي كان إبراهيم لا يزال واقفا فيها داخل الكوخ بمقدار خطوة أو خطوتين من الباب سمع وراءه خشخشة الرشح يسقط

على الأرض. فاستدار ليكتشف أن السقف كان مهترئا وبدأ يسرب بعض المطر إلى الداخل. تفحص موضع ذلك الرشح المنتظم كدقات الساعة. فوجده يسقط داخل حفرة كان قد نحتها من قبل، في المرات السابقة.. نظر إلى أعلى لعله يرى ثقبا ما في السقف المشبك بالجذوع والقش. فلم ير أي شيء. ثم مد يده إلى مصدر القطر فلم يجد غير البلل الذي كان ينتشر فوق الخشب. لكنه كان يعلم أن إصلاح هذا الكوخ لا يكون إلا من خارجه فوق السقف الذي يكون قد تشقق، وصار يسمح بتسرب الماء، دون شك. ولم يكن لديه الوقت الكافي ليعالج هذا الصدع الذي حالفته العاصفة على اكتشافه. كان الوقت قد تأخر. وعليه أن يغادر واكتفى بوضع إحدى القدور الطينية في موضع تلك الحفرة. وتركها تستقبل ذلك الرشح الذي ظلت قطراته متتابعة في إلحاح. وأغلق باب الكوخ، وخرج متجها إلى بيته. يحاول أن يسرع في مشيه. ويقدر مواضع خطوه قبل أن يدفع رجله إلى الأمام وهو يحاذر نفسه من الزلق.. وواصل سيره على وقع رذاذ من المطر الخفيف كان آخر ما نفضته تلك السحب المتراكمة. التي أخذت في الابتعاد، وهي تواصل هجرتها البطيئة نحو الشرق.

في طريقه أحس بتلك اللغات المتعددة للطبيعة، التي كانت قد قطعت أشواطا في استعدادها لموسم التكاثر والثمار.. فالعصافير كانت جذلي في رقصها المتزاوج على الأغصان وهي تدعو بعضها في سقسقاتها الموسيقية العذبة، إلى بناء أعشاشها الحميمية ومباشرة الحياة.. كما كانت الحشرات والزواحف تدب فوق الأرض قدر جهدها. وهي تتجنب المستنقعات الصغيرة، والبرك الموحلة. أو

تتخذ من الأوراق الساقطة زوارق صغيرة لها، وطوق نجاة تمر من خلاله إلى المشاركة في الحياة. وكم أدهشت إبراهيم حزم أشعة الشمس التي كانت ترسلها بين الأوراق وبين الجذوع في المناطق الظليلة. فتسقط على الأرض وتزينها بمنمنمات جميلة. ويرسم ضوؤها على الأرض خرائط وأشكالا عجيبة، لا تخطر على خيال أحد. فكانت تلك الأشكال لا تستقر على صورتها إلا مدة قصيرة ثم لا تلبث أن تتغير أبعادها في الطول وفي العرض. كما كانت تتبدل في الاختفاء وفي الظهور، حسب درجة ميلان الشمس التي كانت في الأفق محمرة خجلى من هروبها، وصغر حجمها في الكون الفسيح.. وتسرع هبوطها في مسارها المرسوم... والكل في حركته أو في جماده. في علوه أو في هبوطه، يمجد الله الخالد الذي لا يتبدل ولا يتغير وهو الذي يخلق التغيير... فكان إبراهيم يقول في نفسه: سبحان الله الذي توضأت مخلوقاته كلها بمطره لتعبده وتسبحه بين أرضه وسمائه في دورة الحياة.

ورأى الأشجار قد تطهرت لتوها من قممها إلى أخمص عروقها، وبدت مزهوة بأكمامها الحبلى، وقد تسرب من بين شقوقها سر أريجها فسارع النسيم إلى إذاعته بين ممالك النحل، التي تداعت بلغتها الخاصة إليه بالدوران والطنين، في نشيد جماعي تلبي نداء الفطرة. وتغنم الذخيرة لتملأ شهدها. بعد سبات طويل، فترشفه صمغا. وتلقح الأزهار المتجاورة، والمتباعدة. وتخفف عنها عجز اللقاء ببعضها البعض بسبب ارتباط جذورها بالأرض. فتنقل رسائل مشفرة بينها مضمنة في حبوب طلعها الطرية.

واصل الأب حديثه لإبراهيم وباقي أفراد أسرته في ليلة

أخرى. وقال لهم إنه حين تماثل للشفاء من جروحه في ذلك الكوخ الضيق. جاءه رفاقه من المجاهدين بغية نقله إلى مخبأ آخر، بعدما سمح له الطبيب بذلك. حتى يترك مكانه لغيره من الجرحى الذين لم يتشرفوا بالشهادة في معاركهم اليومية. فودع الشيخ على أمل لقائه وخرج. استقر في كهف آخر بعيد حتى التأمت جروحه. ثم تم تحويله للعمل في ولاية أخرى بعيدة في الصحراء، رفقة مجموعة من أصدقائه. جاءهم الأمر بالتنقل إليها لمساعدة قلة من إخوانهم المجاهدين الذين لم يكن لهم من العدد والعدة ما يكفي لمواصلة المعارك ضد جيش العدو.. قال الأب لإبراهيم: كنا عشرين نفرا. تم انتقاؤنا للذهاب إلى أقصى الجنوب، ومواصلة جهادنا هناك. لم تكن لي عائلة في ذلك الوقت كما كنت يتيم الأبوين. وليس لي من الإخوة إلا واحدا - كما تعلم -وهو عمك علي الذي كان هو الآخر قد التحق بصفوف المجاهدين، ضمن كتيبة غير التي كنت بها، في المنطقة نفسها ولم نكن نلتقي إلا قليلا.. وهكذا سافرت مع رفاقي تحت جنح الظلام دون أن ألتقي به وأودعه.. وتركته هنا في هذه المنطقة يواصل معاركه. حتى تناهى إليّ نبأ ظل يزحف شهورا طويلة من شخص إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى، حتى وصل إلى سمعي. ليفيدني بأن أخي قد جرح جرحا بالغا، في معركة شرسة مع العدو ونظرا لأن إصابته كانت خطيرة، فقد تم نقله للعلاج في منطقة بعيدة جدا وسرية للغاية. لا يعلمها إلا قلة قليلة من القادة الذين لا يذيعون خبر وجودها، خوفا من افتضاح سرها.. بقيت هناك في الصحراء أؤدي واجبي تجاه الله والوطن، و لا أدخر وسعا في تقصي الأخبار عن أخي، الذي لم يعد لرفاقه منذ ذلك اليوم.

ولم يره أحد منهم حتى تم وقف القتال. وأعلن الاستقلال. لم أعد إلى مسقط رأسي بعدما تأكدت من خلال الأخبار التي صارت تصلني. من أن أخي لم يعد هو الآخر - فلعله قد أكرمه الله بالشهادة في مكان بعيد. أما أنا فقد تزوجت هناك في الصحراء بامرأة اخترتها من أهلها الطيبين بطباعهم التي تنضح بالأنفة والبسالة والكرم.. ومكثت بينهم سنين عديدة. في عشرتهم كنت خلالها من حين لآخر أزور قبور الشهداء من رفاقي الذين سافرت معهم لأجل تنظيم الجهاد في الجنوب. وقد لقي منهم خمسة عشر بطلا الشهادة في تلك الرمال وهم يخوضون القتال في أماكن متفرقة. ضمن قوافل الشهداء الذين كانوا يخرجون من مخابئهم فرحين للقاء الموت في سبيل الله. عشت تلك السنوات عيشة هادئة. كنت أعمل خلالها، وأهتم بأسرتي الصغيرة.. لكن الحنين القوي، والذكريات الجميلة من فردوس طفولتي البعيد، ظلت تحوم حولي وتسقي بداخلي الشوق للرحيل. كنت يا إبراهيم رضيعا في حضن أمك عندما انطلقت بنا السيارة في الصباح الباكر نحو الشمال، في عودتنا إلى بلادنا ومسقط رأسي. عدت إلى منزل والدي القديم الذي بقي طيلة تلك المدة مهجورا. وقد عبثت به قوات العدو حين دخلته، وعاثت فسادا فيه بعدما كسرت بابه ذات ليل حين علمت بأمر الأخوين اليتيمين اللذين التحقا بصفوف المجاهدين. كنت أنا أكبر سنا، في الثانية والعشرين من عمري. أما عمك علي فكان في العشرين، اتفقنا في ليلتنا الأخيرة تلك التي جمعتنا في منزل والدينا على الالتحاق بصفوف الثوار وتلبية النداء.. كما اتفقنا على أن يذهب كل منا وحده، ويلتحق بكتيبة غير

التي يلتحق بها الثاني... وينهي الأب سرد قصته، دون أن ينسى التعبير عن شوقه لأخيه الذي فارقه ولم يجده إلى الآن. ولا يعلم عنه إن كان حياً أو ميتاً.

استقرت الأسرة المجاهدة في منزلها القديم، بعدما أصلحته بشكل لائق للسكن. وبدأ الأب الذي لم يلتق بأصدقائه ورفاقه يبحث عن الأحياء منهم. ويستقي منهم نتف الأخبار عن أخيه علي. الذي لا يعرف مكان قبره أو مكان وجوده إن كان مازال على قيد الحياة. ولم يدم الأمر طويلا حتى عثر على أحد الرفاق الذي كان شاهدا عما حدث لعلي قبيل انتقاله واختفائه عن عينيه.. وسرد عليه قصته القصيرة المؤثرة.. كنا خمسة كما تعودنا على ذلك النظام في السير. نترك مسافة خمسة أمتار بين كل اثنين منا كما تعلم. كان علي في مقدمتنا. لم يباغتنا العدو في ذلك اليوم مثلما حدث لكم معه بل باغتتنا خديعته المبيتة تحت التراب.. وفجأة انفجر ذلك الحقد تحت قدميه. كنت الثاني وراءه عندما ارتجت الأرض تحت أقدامنا. وأثناء سقوطي إلى الوراء رأيت عليا يقذف إلى أعلى بقوة القنبلة التي داس عليها برجله. ويصرخ صرخة مدوية وبلطف من الله لم يمت، وأصيب في رأسه، كان الدم ينزف منه.. وهو غائب عن الوعي. وسلمنا نحن الأربعة. ولم نصب بأي أذى من الشظى الذي تطاير بعيدا عنا... فسارعنا إلى حمله وغيرنا طريقنا، وتركنا المكان يعج بالغبار ورائحة البارود المتفجر وأثناء ذلك كان يفتح عينيه من حين لآخر دون أن يقدر على الكلام.. أوصلناه إلى كوخ ذلك الشيخ الطيب. الذي كان يبعد عنا مسافة طويلة. وأسلمناه إليه، وذهبنا ليلا فأحضرنا له الطبيب

الذي حاول علاجه بأدويته البسيطة. لكنه لم يشف واستمرت غيبوبته.. بقي ثلاثة أيام على تلك الحالة. ثم قررت القيادة في الجبهة نقله إلى مكان بعيد لا نعرف أين يقع. يقال إنه كهف طويل وعريض، حفر في أحد الجبال. ومجهز بشكل يجعله قريبا من المستشفى.. كنت من ضمن أفراد الفرقة التي كلفت بنقله ليلا. كنا أربعة مزودين بالسلاح وبالذخيرة. نقود معنا حصانين. سرنا ثلاثة ليالي كنا نختبئ خلالها أثناء النهار في بعض البيوت. وفي فجر الليلة الثالثة خرج لنا من مخابئهم على جنبات الطريق أربعة مجاهدين من ولاية شرقية، عرفنا من خلال كلمة السر، أنهم مكلفون بنقل علي إلى هذا المستشفى الذي لا نعرف أين يقع. كانت كلمة السر تلك مقسمة إلى شطرين. يبدأ أحد أفراد مجموعتهم بنطق الشطر الأول الذي كان (الأميرعبد القادر) ويجيبه أحدنا بقوله (لم يمت). أسلمناهم عليا الذي كثيرا ما كنا نحمله بيننا في بطانية ممددا، في الأماكن الوعرة التي نخشى فيها انزلاق حوافر الخيل. في تلك اللحظات التي كنا بصدد تسليمه لهم، فتح عينيه تجاهي ونظر إلي نظرة، لا معنى لها. وخلته أثناء ذلك أنه لم يعد يعرفني. ومنذ ذلك اليوم لم أره ولم أسمع عنه أي خبر. لقد كان شجاعا وقائدا على مجموعتنا، ولا يسير إلا في الأمام.

لم يكن الأب (وكان اسمه محمد) إلا أن يصبر، وينتظر فرج الله بأي خبر يأتيه عن أخيه. لقد وجد الرفاق قد استشهد أكثرهم. كما تفرق بعضهم ممن بقوا على قيد الحياة، كما وجد ذلك الشيخ الذي كان يعالجهم في كوخه قد فارق الحياة هو الآخر. ودفعه الأمل إلى زيارة ذلك الكوخ لعله يجد فيه ما يدل على الوجهة

التي ذهب إليها أخوه والكثير من الإخوان الذين كانت دماؤهم تنزف وتسقي بقطراتها أرض الوطن. فدخل وفتش أثاثه، ووجد ذلك المصحف وفتح غلافه ووجد داخله الأوراق نفسها التي وجدها إبراهيم، بيضاء ناصعة. ولم يعثر على أي شيء يدل أو يفيد بوجهة الجرحى الذين كان يستعصى علاجهم في ذلك الكوخ. ويرسلون إلى كوخ آخر أكبر منه كانوا يسمونه، أمام ضيق الحال، مستشفى، وكم تعجب الأب لأنه لم ير ذلك القبر ولم ينتبه لوجوده.

توالت مفاجآت إبراهيم أمام والده. فقد كان يظن نفسه في البداية أنه أول من اكتشف ذلك الكوخ، وحين علم من أبيه أنه عاش فيه مدة أسبوع، وهو جريح، ظل يعتقد أنه أول من دخله بعدما رحل عنه أهله. أو ماتوا بعد الاستقلال.. والآن صار يعلم أن أباه قد زاره هو الآخر من قبل، ولم يكن في نيته البحث عن كنز من المال، أو من الذهب بل كان هدفه البحث عن الحقيقة والدفاتر التي تروي تاريخ الثورة المجيد. لقد قرأ ذلك الأب العفيف تلك الوصية المكتوبة على الجدار، وعلم بوجود ذلك الكنز المخبأ في مكان ما في ذلك الكوخ المهجور، أو ذلك البستان المهمل. لكن عفة نفسه كانت أكبر من أن يهتم بمثل هذا الأمر الذي لا يعنيه، وما كان يهمه بالدرجة الأولى إلا إظهار حقيقة الكثيرين من الذين استشهدوا برصاص الاستعمار، أو بقوا مشردين بعده بلا مأوى ولا عنوان.

عاد إبراهيم إلى ذلك الكوخ في تلك الثلاثاء من ذلك الأسبوع. وهو عاقد عزمه على إصلاح سقفه المتصدع. وما إن وصل حتى وجد الأرجاء كلها في ضيافة الربيع. الذي غطى بحلته كل الأماكن.

لقد سقت أمطار الأسبوع الماضي الأرض. وجعلت التربة تتشقق عن كنوزها المعطرة. والبراعم آخذة في إزاحة غطائها عن أزهارها. مع انسجام ألوانها الآسرة تحت الأشعة الدافئة. وما إن تفقد الأشجار حتى وجدها قد أخرجت أوراقها وأرسلت أغصانها الطرية في اتجاهاتها كلها، وتقاربت المسافة بينها وأخذت ظلالها تزحف إلى بعضها البعض. حتى غدت نسيجا من الظل مهلهلا بعض الشيء، يغطي أرض البستان. فتح الكوة الحاجزة للماء وتركه يخرج جارفا للقاء تلك الأشجار في موعدهما المحدد. ثم ذهب إلى الكوخ فتفقده هو الآخر من الداخل، وأخرج الرفش. وقفز فوق السطح. لقد كان منخفضاً ولا يكلفه الصعود إليه أن يحضر لأجل ذلك سلما. تفحصه جيدا.. كانت فوقه طبقة من التربة المعجونة بالتبن، تغطي الطبقة السفلى الداخلية المشكلة من القش والجذوع. ووجد الأمطار قد نحتت جزءا كبيرا من تلك الطبقة، فتآكل ترابها، وبقي الكثير من الحصى المدبب لاصقا هناك. وبسهولة اكتشف الصدع الذي كان شقه يقسم السقف عرضيا. بسبب حطبة كانت ناتئة ومرتفعة قليلا عن مستوى جذوع الدعم والارتكاز في الداخل. كان ترميم ذلك الشق سهلا على إبراهيم. فهبط إلى الأرض، وكوم مقدارا كافيا من التراب، وأخذ حزمة من الحشائش اليابسة فهرسها وهو يضربها بالرفش فوق كومة التراب حتى تفتتت. ثم قلبها عدة مرات بالرفش حتى غدت خليطا منهما. وانتظر حتى وصل الماء إلى أقرب شجرة من الكوخ. فأخذ منه مقدارا يفي بالعجينة ولا يفسدها. وبقي يقلبها في كل الاتجاهات حتى تشربت وتماسكت. فحمل معظمها بيديه، ووضعها على رف الكوخ. وقفز

من جديد إلى أعلى. وسكبها داخل الشق، ثم ضغط عليها بالرفش حتى تمددت داخله، وتسرب جزء كبير منها إلى عمقه، وملأ الفراغ الذي كان يتسرب منه الماء وتركها تجف تحت أشعة الشمس.

دخل إلى الكوخ، فحمل القدر الطينية التي وجدها منتصفة من رشح الأسبوع الماضي وأفرغها في الخارج. ثم أعادها إلى موضعها الطبيعي بين باقي الأواني التي طال عليها الزمن. وهي تنتظر صهد النار. التفت إلى تلك الحفرة التي أحدثها الرشح بالقرب من الجدار الشمالي. وأمسك بالمكنسة ليخرج ما بها من حصيات بقيت متجمعة فيها. بعدما تطايرت ذرات التراب عنها مرغمة على تحويل موقعها أمام السقوط المتتالي لقطرات الماء الرتيب. أخرج ذلك الحصى وأخذ الرفش يريد تعميق الحفرة قبل إصلاحها. وما إن ضغط عليه حتى أحس بشيء صلب يرده إليه.. ضغط عليه مرة ثانية بقوة أكبر من الأولى. لكن الرفش أبى أن يغوص في التربة، وأصدر لسانه صريرا حادا.. ظنها إبراهيم في البداية صخرة قاسية اعترضت طريقه. فوضع الرفش جانبا. وهوى بيده ليزيح التربة عنها. حتى يتمكن من مشاهدتها وتحديد مفاصلها التي تسهل عملية اقتلاعها. فظهر له في البداية شيء بني يميل إلى السواد، تحسس إبراهيم ملاسته فعرف على الفور أنها قطعة من الخشب، غمرت تحت التراب ببعض سنتمترات. بحث بأصابعه عن أحد أطرافها لينزعها من مكانها. لكن أطرافها كلها كانت تحت دائرة التراب الصلبة المحيطة بها. وعليه أن يوسع دائرة الحفر حتى ينتزعها.. لقد ظن وهو يحفر أن تلك القطعة صغيرة. ولا تكلفه من الجهد إلا قليلا حتى يستطيع انتزاعها، وإصلاح تلك الحفرة التي

وسعها أكثر مما كانت عليه... لكن حقيقتها كانت أكبر من ذلك، فكلما توسعت دائرة الحفر بقيت حدود تلك القطعة مختفية.. وبقي يزيل التربة برفق، ويحرص على ألا يحز ذلك اللوح الصقيل برفشه حين كان يبتسم من فكرة خطرت على باله. وهي أنه سيعثر على تابوت. وقبر آخر يكون صاحبه مجهولا ما لم ينقش اسمه أعلاه. كانت تلك القطعة ممددة ومستوية بحجم الباب تقريبا. ولما رآها، طرد فكرة التابوت من ذهنه. وغمرته الفرحة وهو يظن أن الذي يرقد أمامه في حضن التراب ما هو إلا صندوق يحتوي على ذلك الكنز الكبير. ولكن لا بأس، فعليه أن يتوقف عن الحفر. وألا يخون الأمانة، وسيتركه كما هو وعليه ألا يفتحه حتى يحضر سالم. فهو صاحب التركة. وراح يحدث نفسه بأن يخفي الأمر كما تعود، وينتظر قدومه ليدله مباشرة على موضع كنزه. ولا يتركه يشقى ويتعب في تفسير تلك الوصية العصية. ثم استدار نحوها، وراح ينظر إلى حروفها المتربصة على الجدار مرة.. ثم ينقل بصره إلى ذلك الصندوق الذي أصبح يتربع على مساحة كبيرة من الكوخ.. وكم حاول أن يجد العلاقة بينهما. لكنه لم يهتد إلى أية إشارة يمكنها أن تقود أصحاب الذكاء إلى العثور على ذلك الكنز المخبأ تحت الأرض. فرعاية الأشجار، وإطعام الطيور لا يمكنها أن تؤدي إلى اكتشافه، وهو يربض داخل الكوخ تحت أرضه. كما أن حراسة الكوخ من جهاته الأربع لا يمكنها كذلك أن تؤدي إلى اكتشافه. وربما قد تكون هناك إشارة خفية في ثنايا تلك الوصية، اعترف أمام نفسه بعجزه عن تفسيرها. وهو يعلم أن اهتمامه يجب أن يتوقف عند إصلاح الكوخ ورأب صدعه الذي كانت مياه الأمطار

تتسرب منه. ثم محاولة إصلاح أرضيته المهترئة هما اللتان أدتا به إلى هذا الاكتشاف. وليس له أن يحرسه من جهاته الأربع، أو حتى من جهة واحدة.. فحمد الله على توفيقه. وذكر نفسه بضرورة الحرص على الأمانة حتى تأديتها إلى أهلها. وعليه يجب أن يسرع في ردم ذلك الصندوق وتغطيته بالتراب مثلما كان. ويتركه ينام في مأمنه حتى يأتي صاحبه فيشق لوحه ويفض سره ويأخذ كنزه.

أمسك بالرفش وانهمك بكل قوته في إعادة التراب إلى موضعه. ولم يكن يحاذر هذه المرة مثلما كان يفعل أثناء عملية الحفر. بل كان يرميه بسرعة وقوة فوق اللوح. وحين تعبت ذراعاه عن رميه بعيدا إلى أقصى الزاوية. رأى أن يقف قريبا منها، فمشى فوق اللوح ووقف في وسطه. وأخذ يملأ الرفش وينقله إلى الزاوية. لكنه من خلال حركة رجليه أحس بفراغ تحت تلك الأرضية الخشبية. إذ كان هناك دوي في الأسفل يصل إلى أذنيه. كان يسمعه وكأنه يأتيه من مصدر بعيد. ضرب برجله مرة، فعاد الدوي أقوى من المرة الأولى. وأعاد الضرب ثانية وثالثة.. فكان الصدى يستجيب له بالقوة نفسها.. وهنا ضحك إبراهيم كثيرا على نفسه، وعلى ظنونه المتسرعة. لقد ظنه في البداية تابوتا، ثم ما لبث أن اعتقده صندوقا.. وهو يعلم أن كليهما لا يرجع الصدى وتساءل في نفسه عن هذا الشيء.. ولم يسرع إلى الظن هذه المرة. وكان النهار قد قارب نهايته. وعليه أن يكمل إعادة الغطاء على هذا السر الجديد والأيام كفيلة بأن تبوح له بكل شيء.

في المدرسة لم تكن أموره تسير على ما يرام.. ومن حسن حظه أنه فطن قبل فوات الأوان، لتأخره في تحصيل دروسه

ومذاكرته. بعدما شغل ذهنه لما يزيد عن شهر بأمر ذلك الكوخ وأسراره التي لا تعرف.. فكلما حاول معرفة أحدها فاجأته بسر آخر أشد تعقيدا من الأول.. فقد لاحظ أساتذته عدم اهتمامه الذي فاجأهم.. وقد كان معروفا عندهم بأنه أحسن تلميذ بين أقرانه. كما لاحظ عليه بعضهم شروده المستمر وغياب تركيزه داخل القسم. وكم مرة فاجأه الأستاذ بسؤال. ليعلم منه إن كان يتابع مراحل الدرس. لكنه كان في كل مرة يكشف له عن بعد ذهنه عما كان يدور داخل القسم، أو ما كان يقوم به الأستاذ من شرح.

عاد إلى البيت من المدرسة ذات يوم. وعرض على أبيه مشكلته. فهو لا يستطيع أن يتابع الدروس، ولا يمكنه أن يتابع أي حديث لا يدور حول ذلك الكوخ الذي سكن مخيلته، وأغلق عينيه وصم أذنيه عن سماع أي شيء آخر. وخاف على نفسه الرسوب في نهاية السنة. ففكر الأب كثيرا في مشكلته تلك. ثم اقترح عليه حلا لها. وتمثل في اقتراحه عليه بكتابتها -أي كتابة قصة ذلك الكوخ - ما دام لا يستطيع أن يخبر الناس بها. فحرصه على الأمانة كان يقتضي منه ألا يحدّث أحدا من زملائه عنها.. فأخذ برأي الأب وبدأ يكتب قصة ذلك الكوخ مرحلة مرحلة.. ويشارك بها في موضوعات التعبير المدرسية.

بدأ يكتب القصة كما حدثت بالفعل. ولم يغير منها إلا اسم البطل الذي اكتشف الكوخ فاختار له من الأسماء (مصطفى). وكان الجميع بما فيهم الأستاذ. يظنون أن إبراهيم كان يكتب تلك الأحداث من صميم خياله. فكانت تعجبهم جدا، وكان هو يحصل بها على أعلى الدرجات ولم يتفاجأوا به. فلقد كان قبل ذلك نجيبا،

ولم يظهر عليه أنه ينقل تلك الأحاديث من كتاب ما. ويدعي إبداعه لها.

قسم قصته تلك في البداية إلى مراحل:

- مرحلة اكتشاف الكوخ والوصية المكتوبة على جداره.
- مرحلة معرفة الأب لذلك الكوخ. وبقائه فيه مدة أسبوع جريحا.
- مرحلة الاهتمام بالأشجار، وإصلاح الكوخ.
- مرحلة الاهتمام بالأشجار وإصلاح سقف الكوخ.

حين كتب المرحلة الأولى في حصة نشاط التعبير الكتابي. كان أحسن موضوع في القسم بشهادة الأستاذ، وشهادة الزملاء الذين طالبوه بإتمام تلك القصة التي كانت مقدمتها مشوقة. وكم كانت تلك الوصية مثيرة لهم. وحتى للخاملين منهم الذين لا يشاركون في الدروس إلا نادرا. واشترك الجميع في محاولاتهم تفسير تلك الوصية وهم يظنون أنها من نسيج خيال إبراهيم. لقد فتح الأستاذ في ذلك اليوم مجال المناقشة واسعا بين إبراهيم الذي قرأ موضوعه، وباقي التلاميذ الذين كانت أسئلتهم واقتراحاتهم تنهال عليه. وشعر إبراهيم بأنه قد حدّث زملاءه بصدق عن ذلك الكوخ وما فيه، دون أن يذيع لهم سر وجوده.

أحس بعودته إلى نشاطه الدراسي واهتمامه الذي فقده مدة تفوق شهرا كاملا. كما كانت السعادة تغمره وسط ذلك الشوق الذي باح به زملاؤه للاستزادة من السماع ومعرفة تفاصيل تلك القصة ونهايتها. وكان إبراهيم يجيبهم دائما بأنها طويلة جدا، ولكي يتمها عليه أن يستغل كل حصص التعبير الكتابي فيها حتى نهاية السنة.

ففي كل أسبوع حصة يكتب خلالها فصلا، أو مرحلة منها. خاصة وأنه يحرص على الأساليب الأدبية التي كثيرا ما كان يتعرض لها الأستاذ بالذكر. وأهمها الوصف، والسرد والحوار. ولا يستطيع أن يكتب تلك القصة دفعة واحدة حتى لا يهمل الكثير من تفاصيلها المشوقة ويفسد رونقها.

في مساء ذلك اليوم أخبر إبراهيم أباه بما كتبه في المدرسة. وحصوله بذلك على أعلى درجة في التعبير لذلك الأسبوع. كما وصف له الاهتمام الذي أبداه الأستاذ بموضوعه والشوق الذي عبّر عنه زملاؤه لنهاية قصته التي لم يبح لهم إلى حد الآن إلا ببدايتها فشكره الأب كثيرا على العمل بنصيحته. وشجعه على مواصلة كتابتها.. أخبر بعد ذلك إبراهيم أباه بأنه قد وجد قطعة خشبية بحجم الباب مردومة تحت أرضية الكوخ. ظنها في البداية صندوقا. لكنه اكتشف في النهاية أنها ليست كذلك. وكانت تصدر دويا من تحتها حين يضرب برجله عليها. فنصحه الأب بألا يعود إلى الكوخ بمفرده في المرة القادمة، وعليه أن ينتظر حتى يرافقه إليه في الأسبوع القادم. ويكتشفا معا قصة تلك القطعة الخشبية. فقد يكون تحتها ما يؤذيه ولعله ذلك السرداب الذي حدثه عنه من قبل فأجاب إبراهيم بالموافقة على نصيحة الأب والتفت إلى دروسه يراجعها، ويكتب ما تأخر منها.. ويوم الثلاثاء وبعدما تناولا فطورهما معا اتجها إلى الغابة. كان الأب يحمل معه عدته التي تمثلت في بعض القضبان الحديدية، وفأس صغيرة. وضعها في كيس. وصلا إلى البستان فتوقف الأب عند ذلك القبر، فقرأ عليه الفاتحة. ثم اتجها إلى الكوخ ففتحاه. وأزاحا التراب بسهولة عن

موضع تلك الخشبة. وما إن تحسسها الأب برجله حتى عرف أنه يوجد تحتها سرداب. أو دار صغيرة بنيت للتخفي تحت أرضية الكوخ.

طلب الأب من إبراهيم أن يبتعد عنه قليلا. وراح يتنقل بين الزوايا وهو يضرب برجله ويحاول معرفة الجهة التي يفتح منها ذلك الباب الموصد. الذي لم تكن على وجهه الظاهر أي عين أو ثقب يسمح بإدخال أي مفتاح. تلمسه بيده فوجد المسافة بينه وبين إطاره ضيقة جدا. ومرصوصة بالتراب. أخذ مسمارا دقيقا من عدته وبدأ ينبش ذلك التراب المترسب. وطلب من إبراهيم أن يقوم بالعملية نفسها من الجهة الأخرى. لم يدم العمل طويلا حتى انتهيا من إزاحة تلك الكمية القليلة من التراب وإخراجها. وظهر لهما الباب بإطاره المحيط به وحدوده واضحا.. أمسك الأب مفك براغي قوياً ووضع مقدمته الحادة الرقيقة بين الباب والإطار، وحاول برفق رفعه إلى أعلى لكن الخشب الصلب لم يستجب -ولو باهتزاز بسيط لتلك المحاولة - أعاد الأب الكرة عدة مرات وهو يغير الجهات -من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل - ولكن دون جدوى ولم يتزحزح الباب عن موضعه قدر شعرة. قام الأب واقفا وأعاد الضرب برجله. كان الصدى في هذه المرة أيضا يعود إلى مسامعهما بنفس قوة الضرب. ثم أخذ الأب بعد ذلك قضيبا حديدا قويا ومدببا من الكيس أدخله في الموضع الذي أدخل فيه مفك البراغي أول مرة. وضغط على طرفه الذي كان يرتفع مقدار ذراع بكل قوته.. وفي هذه المرة أصدر الخشب صريرا مع بعض الاهتزاز الذي رافقه تطاير لذرات الغبار.

لقد كانت تلك القطعة بحجم الباب تقريبا في العرض أما في الطول، فقد كانت أكبر من ذلك. إذ كانت تقطع المسافة الفاصلة بين الجدارين الشمالي والجنوبي للكوخ. حاول الأب فتحها من ناحية الجدار لكن خشبه أصدر بعض الصرير ولم يفتح فحاول من الجهة المقابلة ولم يتزعزع أيضا.. حاول من الجهتين العرضيتين ولم يفتح ذلك الباب المغلق بإحكام وبلا قفل ظاهر.. وفي محاولته الأخيرة أمسك بالرفش ووضعه بين الإطار واللوحة الخارجية. في فراغ كان قد نحته له بمفك البراغي وضغط بكل قوته. فانفتح هذه المرة محدثا تشققا في منتصف اللوحة الخارجية، في المنتصف الذي يثبت فيه القفل في الحالة العادية. لقد كان ذلك الباب مغلقا من الداخل بمزلاج ومثبتا من الجهة الأخرى برتاجين يمكنان من استدارته في حالتي الفتح والغلق.. فتحه الأب إلى نهايته وتركه متكئا على الجدار. ونظر إلى الداخل. فلم ير شيئا. لقد كانت العتمة الخانقة تلف المكان الذي لم يفتح للنور والهواء منذ زمن بعيد. ركز نظره أكثر وهوى بركبتيه على الحافة. ومد ذراعه وتحسس الطرف بيده حتى تأكد من أنه سرداب قد تم حفره، وبناء جدرانه تحت الأرض في ذلك الكوخ.. انتظر حتى انقشعت الظلمة قليلا بسبب نور الشمس الباهر الذي تكسر داخل الكوخ. وسمح له برؤية ضبابية عما يوجد داخله. وكانت أوضح صورة له في ذلك المشهد هي لمعان الماء الراكد في الأسفل. كان ذلك السرداب يضاهي في حجمه ثلث مساحة الكوخ بالتقريب من حيث العرض. أما في الطول فقد كان يمر تحت الجدارين المتقابلين، إلى مساحة لم يستطع تقديرها داخل البستان من الجهتين.. وكان الماء

المتسرب من ذلك الصدع الذي وجده إبراهيم على السقف، يتجمع على أرضيته. ويبقى ينشر رطوبته على مهل. في تلك المساحة الضيقة المحاطة بالحجارة، والتي أخذت طبقاتها الخارجية رغم صلابتها تتآكل في دوائر متقشرة، وتنز ببقع من الماء، داخله عثر على طاولة وكرسي ومسرجة وبعض قطع غيار صدئة. عرف الأب بخبرته أنها كانت تصلح لأسلحة قديمة. كما وجد على رف من رفوفه بعض القوارير للدواء. بعضها كان في منتصفه وبعضها الآخر فيه القليل من القطرات.. كما وجد حزمة من الأوراق على الطاولة وبعضها كان على الرفوف الصغيرة المثبتة على جدران السرداب. إلا أن الرطوبة كانت قد محت ما كتب عليها، وأتلفت حروفه.. ولم تبق منه إلا لطخات دائرية من المداد، كانت تشكل غيوما غامضة على صفحاتها. كانت رائحة الرطوبة تزكم أنف الأب، وتضيق على جهازه التنفسي بقلة الهواء داخل ذلك السرداب. ولم يتحمل أن يبقى مدة أطول من تلك في الداخل، فصعد إلى أعلى. ثم هم بغلقه لكنه رأى أن يتركه مفتوحا على الهواء ليخفف من درجة تعفنه. وأوصى ابنه إبراهيم بغلقه في المرة القادمة. ثم خرجا من الكوخ، وقصدا النبع فغسلا أيديهما مما علق بها من طين. وأغلقا الكوة وتركاها تحجز الماء لأسبوع آخر. وعادا إلى البيت.

كان إبراهيم مشغول البال وهو يمشي مع أبيه، بذلك الكوخ المنطوي على الكثير من الأسرار العصية. ولا يذيع منها إلا تلك الوصية المبطنة بالألغاز. فهناك قبر مجهول وكوخ مهجور، وسرداب مغمور.. ووصية يزعم كاتبها بخطه المائل أنه ترك كنزا لولده سالم.

حـاول أن يعـرف الكثـيـر عن ذلك السـرداب من أبيـه. إلا أن هذا الأخير أجابه بأنه لم يكن يعرف عنه شيئا. ولكن أصدقاءه أخبروه بأن الشيخ قد بناه ليختبئ داخله بعض المجاهدين وليكتب داخله على ذلك السجل.. و ما كان الأب متيقنا من وجوده هو، وإبراهيم. هل أن لذلك السرداب باب آخر قد يكون مخرجه في جهة أخرى. ولولا ذلك الباب الخارجي لما استطاعوا غلقه من الداخل.. وهذا ما جعله يصلح لإخفاء المجاهدين. وإعطائهم فرصة الهروب من ذلك الباب الخارجي إذا ما حاصرهم العدو. وبقي إبراهيم بعد ذلك يحاول التفكير في نقطة البداية التي يمكن الانطلاق منها في فهم تلك العلاقة القائمة بين هذه العناصر الأربعة وهي: القبر. والكوخ. والسرداب والوصية. وتمنى في قرارة نفسه معرفة سالم هذا واللقاء به، وتسليمه بستانه وكوخه وحثه على اكتشاف كنزه. ولكن أسلوب التكتم الذي كان يلتزم به، ويحافظ به على الكوخ والبستان منعه من أن يسأل الناس عنه. فلعل أحدهم يعرفه أو يدله على مكان إقامته. ولم يجد غير الأب الذي أفضى له بهذا الاكتشاف. لكن الأب الذي زار الكوخ فيما مضى يعرف له مالكا كان يسميه الشيخ التقي تارة، والشيخ الكريم تارة أخرى وهو ليس صاحب القبر. ولم يكن له من الأبناء إلا ابنة واحدة تسمى عائشة، وتسكن في مكان بعيد.

في الليل أعاد مع أبيه الحديث حول ذلك السرداب، فأبدى الأب أسفه الكبير على تلك الأوراق التي كانت متموجة بالحبر في بقع متداخلة بعدما انطمست حروفها وزالت معانيها. وكرر قوله له بأنه لم يكن يعلم بوجود هذا السرداب من قبل. وأضاف بأنه يمكن

أن يكون الشيخ بمساعدة بعضهم قد حفره وبنى جدرانه بعدما ذهب هو إلى الصحراء، وانقطعت أخباره عنه. وكرر التعبير عن أسفه على تلك الأوراق التي يمكن أن تكون بينها ما أملاه على الشيخ حين كان جريحا. وقد تكون قصة أخيه علي من ضمن القصص الجهادية الكثيرة التي محاها الماء داخل ذلك السرداب وضاعت، إلا أنه لم يفقد الأمل في ظهور الحقيقة يوما ما. ما دام ذلك السجل الذي كان الشيخ يسميه بكتاب الشهداء غير موجود في ذلك السرداب، ولم يلحقه المصير نفسه الذي طمس الأوراق.. فهو موجود عند شخص ما وسيظهر خبره فيما بعد.

كان خبر القصة التي شرع إبراهيم في كتابتها، قد انتشر بين تلاميذ الأقسام الأخرى وذاع صيتها بينهم فأخذوا يشكلون جماعات وحلقات في ساحة المدرسة، وقت الاستراحة الفاصلة بين الدروس. يروون لبعضهم ما سمعوه منه. ويجتهدون في حل لغز تلك الوصية المؤدية إلى اكتشاف الكنز، فكان بعضهم يقدم اقتراحاته العملية لحلها.. و كثيرهم قد تمكن من نفسه عنصر التشويق. فكان يرجوه أن يحكي له ما بقي من فصولها ملخصا وسريعا. ويريد معرفة نهايتها. وهكذا غدا إبراهيم محل إعجاب ومركز اهتمام جل تلاميذ الإعدادية التي كان يدرس بها.

في حصة التعبير الثانية كتب إبراهيم على لسان مصطفى -بطل قصته الوهمي- فصلا جديدا، ضمنه ما تكتم على البوح به للناس. واقتصاره في ذلك على أبيه الذي حكى له بدوره عن معرفته لذلك الكوخ. وقص عليهم قصته كاملة في معركته التي خاضها ضد الاستعمار وجرحه خلالها. ثم لجوءه إلى ذلك الكوخ

للاحتماء في كنف صاحبه ذلك الشيخ التقي الكريم.

فابتهج التلاميذ كلهم بهذا الفصل. وأضافوا إلى جعبة الألغاز التي كان إبراهيم يطرحها عليهم سراً جديداً. لم يذع عليهم من قبل، عن دور منطقتهم البطولي في حرب التحرير الكبرى -حتى وإن كان من خيال إبراهيم كما كانوا يظنون- فكثيرا ما كانوا يتلقون دروسا ومحاضرات عن تاريخ الجزائر الحديث والبعيد.. ولكن ما كان إبراهيم يلقيه على مسامعهم، وجدوا فيه لذة كبرى. وسعادة تخالف سأمهم من بعض الدروس الطويلة الحافلة بالتواريخ واللغة الجافة.

أطلع الأستاذ مدير المدرسة، وباقي أساتذتها على مشروع إبراهيم في الكتابة. وعرض عليهم الفصلين الأولين من قصته.. فاستدعاه المدير إلى مكتبه وشكره عما يقوم به وشجعه على مواصلة ذلك.. وفكر المدير في تعميم تلك التجربة على كل التلاميذ، وحثهم هم بدورهم على الدخول في غمار الكتابة. فنشر بعد ذلك على سبورة الساحة إعلانا يخبرهم فيه بأن الإدارة قد عزمت على إجراء مسابقة في كتابة القصة. وهي حريصة على مشاركة كل التلاميذ فيها. ولقد خصصت جوائز قيمة، في نهاية السنة الدراسية توزع على الفائزين منهم، في حفل الختام. كما اغتنم إبراهيم فرصة شيوع قصته بين زملائه في القسم. ثم بين الكثير من تلاميذ الأقسام الأخرى. فكان يستمع باهتمام إلى محاولاتهم المتعددة في حل لغز تلك الوصية. ويعجب للكثير من الاقتراحات التي كان يبديها بعض زملائه. وهو يعلم أنها من محض خيالهم. ويمكنها أن تكون موضوعات لمشاريع كتابية مشوقة. كما

كان يحتفظ بتلك الاقتراحات، ليفضي بها إلى سالم إذا ما التقى به. لعلها تساعده في العثور على كنزه. وأخذ التلاميذ في تشجيع بعضهم البعض، ونقد بعضهم البعض في مناقشات شديدة وشريفة بينهم، حتى أثرت هذه الظاهرة على السلوك العام للمدرسة. فصاروا ينتبهون لدروسهم أكثر من قبل بكثير والتزموا بالانضباط، وتعلق أمل الكثيرين منهم بالحصول على إحدى الجوائز التي رصدتها إدارة المدرسة للمتفوقين.. وهكذا أخذ حال المدرسة يتغير نحو الأحسن بعدما كان أساتذتها يشكون من الفوضى والعزوف عن تحصيل الدروس.

استمر إبراهيم في زيارته للكوخ كل أسبوع. ولم يتوقف طيلة تلك الساعات، التي كان يقضيها داخله أو في محيطه، عن العمل في أي شيء يراه مفيدا. فقد أعاد للأشجار حياتها المسلوبة. كما أعاد للكوخ بعض نظافته، وأصلح اهتراءاته. وأخرج الماء الآسن من ذلك السرداب وجففه بعدما أخرج تلك الطاولة وذلك الكرسي الذي كان بداخله. ثم أعاد له غطاءه من التراب ورصه برجليه حتى غدا مستويا مع أرضية الكوخ.

كان فصل الربيع قد قطع ثلثيه. وبدأت الأشجار تخرج حبيبات فواكهها. وتتركها ملتصقة بأغصانها، لتكبر وتنضج تحت أشعة الشمس والهواء.. وأخذت الحرارة تشتد منذرة بقدوم فصل الصيف. حين دخل إبراهيم الكوخ في زيارة من زياراته المتتابعة والتي لم يعد يعرف عددها مثلما كان يعدها في البداية: الزيارة الأولى. الثانية الرابعة.. وما إن فتح باب الكوخ ودخله حتى كانت مفاجأته كبيرة هذه المرة. لقد كان سر آخر في انتظاره. ولا يكلف

البحث عنه كثيرا كالمرات السابقة. لقد رأى فوق الطاولة ظرفا أبيضا.. فسارع إليه وفتحه ليخرج من داخله رسالة كتبت له دون أن يعرفه صاحبها. لقد كانت تلك الرسالة قصيرة وهذا نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم. مرحبا بك في كوخي البسيط أيها الصديق المتفاني في العمل. فأنا أدعى سالم وأبلغ من العمر خمسة عشر عاما. أسكن بالعاصمة الجزائر. وأدرس في الثالثة متوسط. وهذا الكوخ والبستان الذي يحيط به ورثتهما عن أبي -رحمه الله-ولا أزورهما إلا مرات قليلة في السنة. ولقد تفاجأت حين جئت هذه المرة. ووجدت آثار عملك بادية على البستان وظاهرة على الكوخ.. ففرحت كثيرا بذلك، وخجلت أنا من نفسي لأني لم أستطع القيام بأي جهد ولو بسيط لأجل تلك الأشجار التي أنقذتها أنت فعلا من الموت، وتسببت في عودة الحياة إليها. فإن وقعت هذه الرسالة بين يدك. وكنت أنت من قام بهذا العمل الكبير فأرجو أن تستمر المراسلات بيننا. وعنواني مسجل آخر هذه الرسالة. وفي الختام أجدد لك شكري عما بذلته من مجهود وهدرته من وقت. وأنت تصلح هذا الكوخ القديم وتسقي تلك الأشجار التي أهملت مدة طويلة. فأنا حريص جدا على صداقتك. ويهمني كثيرا أن أعرف الأسباب التي دفعتك إلى فعل ذلك دون مقابل تريده).

فرح إبراهيم كثيرا بتلك الرسالة المفاجئة التي كان يقرأها ثم يعيد قراءتها من جديد حتى كاد يحفظها. وتملكه السرور بمعرفته لسالم. الذي كان يبحث عنه منذ اكتشافه لذلك الكوخ وظل يحافظ على سريته. ولم يبح بها لأحد آخر سوى أبيه وأفراد عائلته. وأخذ يحدث نفسه في ذلك المساء، بأنه سيراسل سالما ويتعرف عليه

جيدا. ولعله يساعده في إيجاد حل للغز تلك الوصية. ويعثر على كنزها المخبأ. ولقد أحس في ذلك اليوم بأنه من أسعد الأيام التي عاشها في حياته، وقد أتته تلك الرسالة من سالم الذي لم يكن يعرف عنه شيئا. هل هو حي أم ميت؟وهل يأتي أم لا؟ ووضع حداً لكل تلك الأسئلة التي كانت تتزاحم على ذهنه. وشعر بالراحة التامة منها حين جاءه الجواب عنها. فحمد الله كثيرا على ذلك. ثم تفقد البستان. الذي كان يعج برونق الخضرة في عرس بهيج. صنع أهازيجه طنين النحل المثابر على رحيق الأزهار. وتنقل الفراش الخفيف من غصن إلى آخر في احتفالها بالربيع، وعودة الحياة إليها وإلى غيرها من مخلوقات الله تحت أشعة شمسه الذهبية.

كان إبراهيم قد تعلم رفقة زملائه في أحد دروس العلوم كيفية تقليم الأشجار وإزالة بعض الأغصان الزائدة عنها. وتشذيبها حتى تستطيع الشجرة أن تعطي غلالا أوفر وأجود مما كانت عليه. فتلك الأغصان التي يجب أن تنزع. ستبقى -إن تركت -تمتص القيمة الغذائية التي توزعها الجذور عبر الجذع على مجموع الأغصان. وهكذا فإن الشجرة يقل مردودها من الفاكهة وتنقص جودتها، إذا لم تبتر منها تلك الأغصان الزائدة، فأخذ مقص التشذيب الذي كان قد أحضره معه بعدما اشتراه له أبوه من قبل. وبدأ بالشجرة الأولى المقابلة لباب الكوخ، يطبق ما فهمه من أستاذه في درس العلوم. الذي كان قد أخرج خلاله كل تلاميذ الفوج إلى درس تطبيقي على بعض الأشجار التي كانت مغروسة في حديقة مهجورة تقع خلف بناء المدرسة. ولا يزورها التلاميذ إلا قليلا. بدأ يقص الأغصان السفلى التي يتأخر تفتحها كلية. أو تلك التي نخر بعضها السوس، الذي

بدوره يصبح مرتعا خصبا تعشش فيه بعض الحشرات الطفيلية. ثم انتقل إلى أعلى، وبدأ في قص بعضها ليحدث توازنا في عددها. فلا يترك ثلاثة غصينات تخرج من الغصن نفسه، وتتفرع عنه. فكان يقص أوسطها ويترك للاثنين مسافة بينهما، يقتسمان غذاء ذلك الغصن الذي بتره. لم تكن العملية سهلة. بل كانت شاقة عليه. لكنها لم تكن مملة واكتشف فيها إبراهيم لذة كبيرة حين كان يقوم بها، وهو ينظر إلى تلك الغصينات الطرية المشبعة بالماء تتقطع من مصدرها، بمجرد ضغطه على ذراعي المقص الحاد فتموت وتسقط وتترك المكان والغذاء لغيرها. فيحيا ويزهر المدة التي كتبها له الله. وقد يقص بدوره حين يصير غصنا خشنا، ليترك دورة الحياة لغيره.. كان إبراهيم يتأمل هذا وهو يسبح الله تعالى الذي يخرج الحي من الميت. ويخرج الميت من الحي. فسبحان الله الحي الدائم الذي لا يموت.

قرأ إبراهيم في طريق عودته إلى المنزل رسالة سالم عدة مرات أيضا. وكان بعد كل مرة يلجأ إلى خياله، ويحاول أن يرسم له صورة في ذهنه. فقد عرف من خلال تلك الرسالة أنه مؤدب، وأسلوبه في الكتابة جميل -ما يدل على اهتمامه بدراسته - وألفاظه مختارة بعناية. وهو في الخامسة عشرة من عمره. وفي السنة الثالثة مثله، ولديه الكثير من الصفات التي يتميز بها إبراهيم، ويمكنها أن تقرب الصداقة بينهما، فإبراهيم كان هو الآخر في الخامسة عشرة من عمره.. وواصل طريقه وهو يحلم بمشروع صداقة جديدة ستربطه بشخص ما زال لا يعرفه. ويدرس بمدرسة أخرى. ويسكن العاصمة التي تبعد عنه كثيرا.. ثم راح

يفكر في الأقدار التي تضع الأسباب في طريق الناس. حتى يكتشفوا ويعرفوا بعضهم البعض. وقد يبقون أوفياء لصداقتهم تلك. ولن تقف المسافات البعيدة عائقا أمامهم. ولن يؤدي الانقطاع الذي تسببه الظروف بينهم إلى نسيان بعضهم البعض.

في البيت قرأ تلك الرسالة على أبيه، وأفراد أسرته ففرحوا جميعا بهذا الخبر السار وقرأها كل واحد منهم بدوره. وحثه الأب وكذلك الأم على ضرورة الإسراع في الرد عليه برسالة أخرى يخبره فيها بأنه سيبقى يبذل المجهود المعتاد نفسه في العناية بالبستان وبالكوخ. ويطمئنه فيها بألا يحتار لأجلهما. ويستطيع أن يمكث في بيته، ولا يتكلف المجيء إلى ذلك الكوخ بسبب بعد المسافة عنه. وما عليه إلا الحضور في عطلة الصيف ليبيع منتوجه من الغلال. كما ركز الأب وهو ينصح إبراهيم على ضرورة إدراج تلك الرسالة في القصة التي كان يكتبها على مراحل. ففيها فائدة كبيرة تنبه التلاميذ إلى أهمية الكتابة، ودورها في التعارف بين الناس.

في تلك الليلة نفسها كتب إبراهيم رسالته الأولى إلى سالم. وهذا نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم. إلى الصديق الطيب سالم. لقد فاجأتني رسالتك التي تركتها لي فوق الطاولة في ذلك الكوخ الذي وفقني الله في حفظ سره عن الناس. وبقيت طويلا أبحث عن صاحبه. لقد فرحت بها فرحا كبيرا أنا، وكل أفراد أسرتي، الذين شجعوني على مراسلتك. كما شجعوني من قبل على الاهتمام بتلك الأشجار من حيث السقي والتشذيب وإصلاح ما تصدع من الكوخ. والمحافظة على أثاثه.. إن الفرحة لا تسعني حقا. وقد ساق لي الله صديقا طيبا يماثلني في العمر، ومستواي الدراسي. مقابل

مجهود بسيط بذلته حرصا على الأمانة في ذلك البستان. وكوخه المهجور. حتى يعود إليهما صاحبهما فأرجوك ألا تهتم من ناحيتهما. وأعاهدك على أني سأبقى أزورهما مساء كل ثلاثاء. وما عليك إلا أن تهتم بدروسك حتى مجيء عطلة الصيف. وخلالها يمكنك أن تأتي لنتعارف جيدا، وتبيع محصول الفاكهة الذي سيكون وفيرا هذا العام بإذن الله. وفي الأخير أرجو أن تسرع في ردك على رسالتي هذه التي ضمنت عنواني في نهايتها.). أعاد قراءة الرسالة ليصحح ما يكون قد ارتكبه خلال كتابتها من أخطاء. وأطلع عليها أباه وأمه فأعجبا بها. ثم طواها ووضعها داخل الظرف. وأغلقه وكتب عنوان سالم على ظهر ذلك الظرف. ووضعها داخل المحفظة بين دفاتره، حتى يرسلها له بالبريد غدا في الصباح وهو ذاهب في طريقه إلى المدرسة. ثم التفت إلى قصته التي كان قد كتب منها عدة فصول. وكان في كل مرة يثير فضول زملائه الذين كانوا يترقبون نهايتها، ويجتهدون في مناقشاتهم لوضع نهايات محتملة لها. ولقد ركز الكثير منهم على موضوع الكنز فيها ورجحوا في معظمهم أن الذي يكتشفه هو البطل (مصطفى) نفسه الذي اكتشف الكوخ أول مرة.

في المدرسة قرأ إبراهيم ذلك الفصل من قصته، وتعرض فيه إلى الرسالة التي تركها سالم داخل الكوخ. وما إن انتهى من القراءة، حتى أبدى له جل زملائه إعجابهم بعد ما أدخل هذا العنصر الجديد في كتابته. وأثارت اهتمامهم كثيرا، مشاركة سالم برسالته في الأحداث. وما إن سمع به المدير بعد ذلك حتى هنأه على إدراج الكتابة ضمن عناصر قصته المشوقة. وتوافقه مع ما دعا

إليه في المسابقة التي نظمها حول موضوع الكتابة القصصية في المدرسة.

أما الزملاء الذين كانوا يتمتعون بلذة كبيرة وهم يستمعون إليه وهو يقرأ، فقد صاروا مختلفين حول الشخص الذي يمكنه أن يكتشف الكنز من مخبئه. وانقسموا في ذلك إلى فريقين. فريق ظل ثابتا على موقفه الذي يقول فيه بأن الذي يكتشف الكنز هو البطل الذي اكتشف الكوخ. بينما الفريق الآخر رأى في شخصية سالم التي دخلت أخيرا في أحداث القصة. وبدأت تتحرك مع شخصية البطل الرئيسة -بعدما كانت مجرد اسم مسجل على تراب الجدار -هو الذي سيكتشف الكنز الذي أوصى له به أبوه. ويرد عليهم أعضاء الفريق الأول، بأن الذي سيكتشفه هو البطل الذي كان يزور الكوخ والبستان كل ثلاثاء. وكان يعمل هناك طيلة تلك الأمسيات. وذات يوم من الأيام سيعثر عليه دون شك؛ لأنه دائم الحضور. ويعمل بنصيحة الوصية في رعاية الأشجار. إلا أنهم كانوا يحجمون عن ذكر العنصرين الآخرين منها وهما إطعام الطيور، وحراسة الكوخ من جهاته الأربع. ولا يتطرقون إليهما. وقد اعترفوا جميعا بصعوبة هذا العنصر الأخير ولم يتمكنوا من تصور لتلك الحراسة التي تقوم على أربع جهات في الوقت نفسه. وكثيرا ما كانوا يسألون إبراهيم هذا السؤال بغية أن يشرح لهم هذه الكيفية التي عجزوا عن إدراكها. لكن إبراهيم كان يجيبهم بصدق ويقول لهم بأنه هو نفسه لا يعرف ذلك.. لكنه سيستمر في الكتابة، ولعله في فصل من فصول قصته الطويلة يستطيع أن يهتدي لحل هذه المسألة. فالكتابة كثيرا ما تبوح ببعض أسرارها، للكتاب المواظبين عليها.

وتسر لهم ببعض الأفكار التي لم يكونوا يعرفونها من قبل... لكن أعضاء الفوج الثاني -أنصار سالم - يردون على زملائهم من الفوج الأول. بقولهم لهم، بأن سالما ليس غائبا عن كوخه وبستانه. بل هو يحضر لزيارتهما من حين لآخر. بدليل أنه ترك رسالة على الطاولة للبطل الذي لم يلتق به. وهو حتى وإن كان يغيب لفترات طويلة فإنه دائم التفكير في كوخه ووصيته. ودون شك هو يعرف داخله وخارجه الكثير من المخابئ التي يمكن أن يكون والده قد ترك الكنز داخلها. فيرد عليهم أعضاء الفوج الأول أنصار البطل بحجج أخرى.. وهكذا كان يحتدم النقاش بين الطرفين، بأسلوب لا يتجاوز الأدب والاحترام. والكل يشارك بدوره في تلك الحصة المدرسية التي كانت تنتهي بسرعة مع أستاذ اللغة العربية الذي كان يشرف على الحوار ويوجهه. ويحث الجميع على ضرورة الالتزام بآدابه.. في احترام المتكلم للسامع، وعدم مقاطعة السامع للمتكلم. كما تجاوز الاختلاف بين تلاميذ القسم شخصيات القصة إلى أماكنها. فبعضهم كان يرى أن الكنز مدفون داخل الكوخ. بينما رأى البعض الآخر أنه كان خارجه.

استمرت الرسائل في تداولها بين إبراهيم وسالم، بمعدل رسالة في كل أسبوع.. ومن خلالها استطاع إبراهيم تلقي الكثير من المعلومات، عن علاقة سالم بذلك الشيخ الذي كان يملك الكوخ من قبل. -كما حدثه عنه أبوه - وكيف انتقلت ملكيته إليه. والكثير من الأحداث التي سردها سالم في رسائله المتتابعة إليه. وتفرعت القصة التي كان يكتبها إبراهيم. وتوسعت لتحمل داخلها قصة أخرى. تشتركان في بعض الشخصيات. وتتميز القصة الجديدة

ببعض شخصياتها الخاصة.. لكنهما لم تكونا متناقضتين، بل منسجمتين، تكملان بعضهما البعض في حبكة واحدة، تسد الكثير من الفجوات التي كانت موجودة في ذهن إبراهيم الذي لم يستطع فهم العلاقة بين ذلك الشيخ وبين صديقه سالم. كما لم يستطع معرفة الطريقة التي تم بها انتقال ملكية ذلك الكوخ وبستانه لسالم، من ذلك الشيخ الكريم الذي حدثه عنه أبوه.. كما صارت الفصول السردية التي كان يكتبها إبراهيم ثم يقرأها على زملائه، تجيب عن الكثير من أسئلتهم التي كانت معلقة من قبل. واجتهدوا في مناقشاتهم أن يجدوا لها جوابا مريحا، إلا أنهم لم يصلوا إلى ذلك. حتى وإن اقترب بعضهم من الحل في بعض المرات.. كما شجع الأستاذ إبراهيم على هذه الطريقة في الكتابة. ونصح زملاءه بالتمرن عليها. فالقصص يمكنها أن تتوالد من بعضها البعض في حبكة واحدة، تؤلف بينها دون تناقض. وهذا كله كان يثير فضول الزملاء وشوقهم ومتابعتهم لما كان يقرأه عليهم إبراهيم. وكلهم أمل في نهاية سعيدة تكون تتويجا بالعثور على ذلك الكنز، الذي لا توجد لديهم أية إشارة قد وضعها إبراهيم وهو يكتب لتدلهم على مكانه.

لقد بدأ سالم يحكي لإبراهيم في رسائله، قصة ذلك الشيخ الذي حدثه عنه أبوه. هو الآخر. فلم يكن سالم يعرفه، ولم يره في حياته. وحين ولد كان ذلك الشيخ قد توفاه الله منذ زمن بعيد.. كان ذلك الشيخ التقي، يسكن ذلك الكوخ رفقة ابنته عائشة، التي توفيت أمها وهي صغيرة، وتركتها في رعاية أبيها، وهذا ما كان إبراهيم يعرفه من قبل، فلقد حدثه أبوه بهذا عندما قصّ عليّ

قصة جرحه في حرب التحرير، ولجوئه إلى الاختباء في ذلك الكوخ، وقد كان لهذا الشيخ قريب يسكن العاصمة واسمه (مختار). وكثيرا ما كان يزوره ويمكث عنده عدة أيام، يمارس أثناءها رياضة الصيد، في أرجاء تلك الغابة الفسيحة كبرت عائشة وأتمت رشدها بعد سنين.. وذات يوم من الأيام، جاء مختار رفقة والديه لذلك الشيخ الذي كانا يعرفانه جيدا. بحكم القرابة القائمة بينهم. وطلبوا منه يد عائشة لزواج ابنهما مختار منها. فوافقت عائشة ووافق أبوها الشيخ. وبعد ذلك تم الزواج بينهما وارتحلت لتسكن مع زوجها في العاصمة، بعيدة عن أبيها الذي بقي وحيدا في ذلك الكوخ يملأ حياته بالعمل في ذلك البستان، وعبادة الله. ويشغل نفسه بقراءة القرآن الكريم، في ذلك المصحف الذي عثر عليه إبراهيم في ثنايا أثاث الكوخ.

كان الشيخ يبيع غلاله كل عام، ويتصدق بالكثير منها على الفقراء. كما كان لا يزور المدينة إلا مرات قليلة في الأسبوع. وأغلبها يوم الجمعة ليؤدي الصلاة مع الجماعة. ولم تكن هذه المعلومات خافية على إبراهيم الذي كان يعرفها من قبل.. كما لم تكن خافية على زملائه الذين قد سمعوها من فمه قبل ذلك.. لكنه رأى في إعادة كتابتها إفادة في بناء القصة المحكم، خاصة وأنها كانت متطابقة مع ما كتبه في البداية على لسان أبيه، إلا أن ما كان يقوله له سالم، لم يكن يعرفه كله، وكان فيه الكثير من الأحداث الشيقة والمحزنة التي كتب له عنها بالتفصيل.

ذات مرة كان الشيخ في طريقه إلى المدينة، لكنه أحس فجأة بدوار وألم كبير في رأسه ولم يستطع الصمود إلا دقائق قليلة. ثم

أغمي عليه عند طرف تلك الغابة. لكنه حين فطن من إغمائه، وفتح عينيه، وجد أمامه طفلا في الثانية عشرة من عمره، كانت ثيابه بالية و مهترئة.. كان ذلك الطفل يسعفه، ويمسح له وجهه بالماء من قنينة كان يحملها معه مثل كل الرعاة. وكانت شياهه ترعى بالقرب منه. صحا الشيخ بعد مدة واستعاد وعيه. و سأل الطفل عن اسمه.

– فأجابه الطفل بقوله: اسمي خالد.

فشكره الشيخ كثيرا عما قام به تجاهه. ودعا له الله أن يحفظه ويوفقه. ثم سأله: هل هذه الشياه التي ترعاها ملك لك؟.

– فأجابه خالد بقوله: لا، إني أرعاها فقط. وهي ملك لغيري. وأنا أقوم بهذا العمل لقاء ما يعطيني من أكل وشرب لا أكثر.

ثم سأله أيضا هل أبوك حي؟.

فأجابه الطفل بقوله: كلا، بل توفي وأنا صغير جدا. وكذلك أمي.

تفطر قلب الشيخ حزنا على ذلك الطفل الذي لم يكن له معيل، وسند يتكئ عليه، ويسهر على تربيته وتوجيهه، وآلمه وضعه المزري وثيابه الرثة. فأعطاه بعض الدراهم، وكان قد استعاد عافيته، وأحسّ في نفسه قدرته على مواصلة السير إلى المدينة. فذهب في طريقه بعدما دله على مكان سكنه في ذلك الكوخ؛ ليقصده إن احتاج إلى شيء يمكنه أن يساعده به.

كان خالد يتيم الأبوين إذ تركاه صغيرا. فآوته عائلة فقيرة من أقاربه، وعاش السنين الأولى من طفولته بين أفرادها الذين كانوا طيبين معه، إلا أنهم كانوا فقراء جدا. ورغم ذلك كانوا ينفقون عليه مثلما كانوا ينفقون على أبنائهم في المأكل والملبس. وما إن وصل

خالد إلى سن الثانية عشرة حتى انفصل عنهم، وحاول أن يكون مستقلا بنفسه وحياته. إلا أنه لم يستطع ذلك، ولم يقدر على تحمل أعباء حياته لقلة تجربته وصغر سنه.. وقد بحث كثيرا عن عمل يمكنه من العيش الكريم، ومكان يأوي إليه بعد تعبه، لكنه لم يستطع الحصول على شيء من ذلك، وعاش شهورا مشردا في الشوارع. ولم ينتبه إلى حالته الصعبة التي كان يعيشها، أحد من أصحاب القلوب الرحيمة. حتى التقى بأحد الفلاحين، ومالكي القطعان. الذين كانوا يسكنون السهول المحيطة بالمدينة. فاستغل حاجته الماسة إلى الطعام والمأوى. ولم يرحم ضعفه وقلة خبرته. وسخره بلا رحمة لخدمته ورعي قطيعه من الماشية، لقاء ما يأكل وما يشرب عنده. كان ذلك الرجل قاسيا فلم يرحم ذلك الطفل يوما، فقد كان ينهض في الصباح الباكر يقود قطيع الغنم إلى الرعي ولا يعود إلا في المساء، ويقضي يومه كاملا معرضا للبرد القارس في الشتاء، وللحر الشديد في الصيف. وفي المساء يدخل القطيع إلى الإسطبل أو الزريبة. ويركن إلى إحدى الزوايا لينام معه حتى الصباح. وحينها يبدأ رحلة جديدة من الشقاء... إلا أن ما يعجب في شخصية ذلك الطفل خالد أنه كان كريم النفس، حريصا على أداء عمله، وصيانة الأمانة التي ائتمنه عليها صاحبها. فكان دائم الحرص على رعي تلك الأغنام وعدها كل يوم، حتى لا تنقص ويضيع بعضها في الخلاء، قبل اقتيادها إلى الإسطبل كل مساء. كما كان دائم الانتباه لخرافها الصغار التي يحلو لها الجري في طابور حول أماتها وكأنها في سباق تقفز أثناءه على الدروب الوعرة. فكان يسهر عليها لألا تتأذى إحداها أو يتكسر أحد

أعضائها الرخوة... لقد كان ذلك الطفل الفقير صابرا رغم ما كان يعانيه من جوع وعري. راضيا بما قدره له الله من عمل، ومن رزق قليل لا يكاد يسد به قوت يومه، فلم يكن نكدا أو متبرما، من شقائه ذاك الذي كان يصون به كرامته، وقد صار يعيش من عرق جبينه. وليس عالة على الآخرين مثلما كان من قبل عند تلك الأسرة الكريمة الفقيرة. التي بقي يذكر أهلها بالخير، ويعدد فضلها عليه. ويرد لها بعض إحسانها إليه بزياراته الخفيفة لها، كلما سمح له صاحب العمل بذلك.

التقى خالد وهو يرعى غنمه بذلك الشيخ بعد أيام، فأجلسه بالقرب منه. واطمأن على أحواله الصحية، وأبدى عطفه عليه، فأعطاه بعض الأكل والقليل من المال، وكرر له قبل أن يفارقه ما قاله له في المرة الأولى، حين بيّن له مكان سكنه، ونصحه بزيارته له كلما كان في حاجة إلى مساعدته. ومنذ ذلك اليوم بدأت حياة خالد تتغير نحو الأحسن. بعدما وجد من يهتم به من الناس. وقد كان قبل ذلك معزولا تماما عنهم، يقضي يومه كاملا مع الحيوانات، ويبيت ليله معها في المكان نفسه. فبدأ ينتابه شعور طيب-أكثر من قبل - حول نفسه، خاصة وأن الشيخ شكره كثيرا على تأديته للأمانة وحرصه عليها. رغم ما كان يعانيه من قسوة صاحب القطيع عليه. وأخيرا عثر عمن يمكنه أن يستمع إليه ويحدثه ويعامله باحترام، ويغدق عليه من عطفه وحنانه مادام صغيرا. وبقي يحمد الله كثيرا على تلك الصدفة التي وجد فيها الشيخ مغمى عليه. واستطاع بفضل الله تعالى أن يسعفه ويستعيد عافيته، تلك الفرصة التي تعارف فيها مع الشيخ. وأخذت صداقتهما تتوطد كل

يوم، فكان الشيخ معجبا بخالد المخلص الأمين. كما كان خالد يرى في ذلك الشيخ الحنون أباه الذي لم تتح له فرصة معرفته، والنشأة في أحضان فيض حنانه. وبقي تعلق خالد بذلك الشيخ الذي أنقذه من عزلته وغيّر نظرته إلى نفسه يزداد يوما بعد يوم، حتى أنه كان يتمنى في نفسه في اليوم الذي يلتقيه فيه، ألا تسرع الشمس إلى غروبها، أو يطول النهار أكثر من وقته حتى يبقى مدة أطول وهو بقربه يتحدثان مع بعضهما، أو يستمع إليه وهو يرتل القرآن الكريم، ويضمر في نفسه الأسف الكبير على الحياة التي لم تتح له فرصة القراءة والكتابة كما وهبتها للكثيرين من غيره.

لم تكن تلك السهول الخصبة متاحة للرعي في كل الفصول، فقد كان الفلاحون يحصدون غلالهم من القمح والشعير في فصل الصيف، ويتركون أعواد القصب التي كانت تحمل السنابل لترعاها الماشية حتى منتصف الخريف. فإذا ما هطل المطر وارتوت الأرض ماء هب الفلاحون إلى حرثها من جديد. وضاقت تلك المساحات الشاسعة على رعاة القطعان الذين يذهبون بها طيلة فصلي الشتاء البارد والربيع المعتدل إلى داخل الغابة فترعى هناك بين الأشجار الباسقة. عما تساقط من أوراقها اليابسة، وما نبت على أرضها من عشب، وتتبع أوديتها العميقة وما تخللها من مروج. وهكذا كان الرعاة يقضون نصف سنة كاملة داخل تلك الغابة الكثيفة. كما يقضون نصفها الآخر على السهول التي تم حصادها. وكان خالد من ضمن أولئك الرعاة الذين كان عليهم أن يسوقوا قطعانهم في ذلك الشتاء القارس إلى أدغال الغابة. وكم كان حريصا تلك السنة على الذهاب هناك فلطالما تمنى أن تتاح له فرصة زيارة ذلك الشيخ

الذي تصاحب معه. فهو يسكن هناك. وفي عديد المرات كان يحثّه على ضرورة المجيء إليه إذا ما احتاج إلى شيء. وما إن تم حرث تلك السهول حتى بات خالد على أحرّ من الجمر يتمنى في ليله الطويل أن تشرق أشعة الشمس بسرعة. ليسارع هو أيضا بالقطيع، ويلتقي بالشيخ هناك ويقضي النهار برفقته.

أسف التلاميذ كثيرا على حالة ذلك الطفل اليتيم خالد الذي قرأ عليهم إبراهيم قصته في أحد الفصول، وحزنوا لذلك، وبعضهم قد بكى لشقاء بعض الأطفال الذين لم تتح لهم فرصة التمتع بوالديهم، والعيش الكريم في كنفهم. وحمدوا الله على نعمة المدرسة عليهم وحصولهم على حقهم في التعليم.. كما أبدوا إعجابهم بذلك الشيخ العطوف الذي لم يبخل بشيء على خالد. والذي قرّبه منه رغم ما بينهما من فارق في السن. ورأوا جميعا أن خالدا بأخلاقه الفاضلة، وحرصه على الأمانة يستحق مثل هذه الصداقة التي تشرفه وترفع منزلته، وتزيل عنه بعض الغبن. وتفك عنه العزلة التي كان يعيش في ظلالها. ولم يخف التلاميذ في مناقشاتهم رفضهم لتلك القسوة التي وصف بها إبراهيم صاحب القطيع وسلوكه المتكبر الذي هو ليس من شيم المؤمن. واستشهدوا بالكثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة التي تلزم صاحب العمل بضرورة الإحسان إلى الأجير ومعاملته باحترام كبير.

لاحظ خالد أثناء المناقشة، التي كان الأستاذ يفتح بابها في الثلث الأخير من الحصة أن زملاءه لم يختلفوا مثلما كانوا يفعلون في الحصص السابقة، بل كانوا متفقين، وشركاء في الحزن والأسف. وكانوا صفاً واحداً في نصرة ذلك الطفل اليتيم خالد

الذي كبر في أعينهم. لأنه صان الأمانة، ولم يفكر يوما في خيانة من استخدمه. بالتفريط في عمله، وأجمعوا كلهم على أنه شريف وإن كان فقيرا.

كان خالد يسوق قطيعه في أيام الشتاء إلى داخل الغابة. يصحب معه أحد الكلاب التي تساعده على الحراسة. وقد دأب على الذهاب للرعي في محيط مسكن ذلك الشيخ الذي كان يساعده، وكثيرا ما كان يتركه داخل الكوخ ليتدفأ قرب الموقد، ويبقى هو يحرس القطيع في الخارج، حتى يستريح خالد جيدا، ويجفف ثيابه التي كثيرا ما كانت تبللها الأمطار المفاجئة، حتى إذا جاء المساء، رافقه الشيخ وهو يسوق معه الغنم حتى تخوم الغابة، ثم يوصيه بالحرص عليها، ويتركه يتم طريقه إلى الإسطبل، ويعود هو إلى كوخه يقضي ليله وحيدا داخله...

سارت الأيام جميلة في حضن تلك الصداقة، التي جمعت خالدا بذلك الشيخ، واقتربا من بعضهما في كل شيء، وصارا يساعدان بعضهما، ففي أحيان كثيرة كان خالد يبقى داخل البستان ليقوم بأي عمل يتطلب مجهودا لا يقدر عليه الشيخ، في حين يذهب هذا الأخير إلى حراسة القطيع ورعيه.

كان الكوخ بعيدا عن المدينة ومحلاتها. ولم يكن الشيخ يستطيع الذهاب دائما لقضاء بعض المصالح، أو لشراء اللوازم التي يحتاجها في حياته. فكان يرسل خالدا بعدما يعطيه النقود ليشتري له بعض المستلزمات التي كان يكتبها على ورقة صغيرة، ويسلمها له حتى لا ينساها، فإذا ما وصل إلى المدينة، ودخل إلى الدكان الذي أرسله الشيخ إليه، أخرج تلك الورقة من جيبه وأعطاها للتاجر الذي

يعطيه بدوره كل ما طلبه الشيخ على تلك الورقة من مواد غذائية بسيطة. أو أدوات للتنظيف، ثم يدفع له الحساب ويعود مسرعا إلى صاحبه، يحمل معه تلك السلعة القليلة.

حدث ذات يوم شديد البرودة غزير الأمطار أن ساق خالد قطيعه ليرعى في إحدى الزوايا القريبة من الكوخ. وما إن وصل هناك حتى احتمى بجذع شجرة من شدة الريح التي كانت عاصفة وترك قطيعه ينتشر حوله.. ولم يدم الأمر طويلا، حتى أطل الشيخ برأسه من تلك الأجمة. وما إن رأى خالدا، حتى أسرع في خطوه.. كانت الأمطار قد توقفت عن الهطول، لكن الجو ازداد برودة بفعل تلك الريح التي كانت تزمجر بقوة وتهز الأشجار هزا عنيفا. وتحاول في يأس اقتلاعها من جذوعها القوية. وصل إليه وما إن تبادلا تحية الصباح، حتى رأى الشيخ أن ثياب خالد كانت تقطر من البلل، فأمره بأن يذهب إلى الكوخ ليجففها، ويتدفأ على نار الموقد التي تركها مشتعلة، ويأكل رغيفاً من الخبز، ويشرب بعض القهوة التي تركها هناك، ونصحه أن يسرع في الذهاب حتى لا يباغته الزكام والسعال، وهو معرض لتلك الريح الباردة. فذهب خالد، وبقي الشيخ في مكانه يحمل معه مصحفه الذي لا يفارقه. ويحرس له القطيع. وحين كان خالد يهرول ناحية الكوخ، كان الشيخ يشيعه بنظرات حانية، ونفسه تعتصر ألماً على حالته المزرية التي يعيشها.

كان النهار قد اقترب من الضحى حين جفت ثياب خالد وتدفأ جيدا، وأكل وشرب. ثم خرج يقصد الشيخ مع قطيعه، كانت الريح ما تزال تعوي، والسماء ملبدة بالغيوم السوداء، فوصل إلى صديقه الذي وجده جالسا في مكانه يقرأ ما تيسر له من الذكر الحكيم.

ويرفع رأسه بين كل آية وأخرى، لينظر إلى تلك الشياه التي كانت تجز العشب في أواسط الشتاء. أو تلتقط بشفاهها السريعة بعض الأوراق اليابسة التي سقطت في فصل الخريف. جلس بالقرب منه وبقيا يتحدثان. كان الشيخ سعيدا خلال ذلك وهو يسأل خالدا إن كان قد تدفأ جيدا، وجفف ثيابه كلها، وهل أشبعه ذلك الرغيف الذي تركه له، وطال بهما الحديث.. حتى سأل الشيخ خالدا عما كان يفعله بتلك الدراهم القليلة التي كان يعطيها له من حين لآخر، لكنه لم يكن يتوقع أن يجيبه ذلك الطفل بما سمعته أذناه من فمه.

لقد كان خالد يجمع تلك النقود ولا يصرف منها إلا قليلا، ويحتفظ بالبقية منها، ويذهب بها إلى تلك العائلة التي آوته بين صغارها، وأنقذته من التشرد حتى كبر قليلا. وصار يمكنه الاعتماد على نفسه في كسب قوت يومه. لقد قال للشيخ بأنه لا يستطيع نسيان فضلهم عليه، رغم ما كانوا يعانونه من فقر شديد، وعليه أن يساعدهم بما تيسر له، فلديهم أطفال صغار، وبعضهم مريض. وهو يحس تجاههم بعاطفة الأخوة.. فأعجب الشيخ كثيرا بجواب خالد الذي أدهشه. كما فاجأه نضجه وسداد رأيه، رغم صغر سنه، وصفة الكرم المتأصلة فيه. وأضاف خالد وهو يقول للشيخ:إني أشكرك كثيرا على تلك الدراهم التي كنت تعطيني إياها. لكنني لا أستطيع أن أستأثر بها وحدي. مادام هناك من هم أكثر فقرا وحاجة مني إليها.

كان النهار قد اقترب من منتصفه، عندما سأله الشيخ إن كان يستطيع أن يذهب إلى المدينة ليشتري له بعض الأشياء من عند

صاحب الدكان الذي تعود على الذهاب إليه. فوافق خالد على ذلك بسرور، وأعطاه الشيخ الدراهم القليلة اللازمة، مع الورقة المطوية التي سجّل عليها تلك الأشياء- حتى لا ينساها- فأمسكهما خالد ووضعهما في جيبه.. والشيخ يوصيه بالحرص عليهما حتى لا يضيعا منه، وانطلق بخفة صوب المدينة وبقي الشيخ ينظر إليه، وهو يبتعد عنه بسرعة - وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة من الزهو برشاقة ذلك الطفل الذي حل عنده في مكان ابنه- حتى توارى حجمه الصغير بين الأشجار.

وصل خالد إلى المدينة بسرعة، وقصد الدكان الذي كان الشيخ يرسله إلى صاحبه دائما وما إن سلم عليه حتى دفع بيده إلى جيبه. فأخرج منه الأوراق النقدية التي سيدفع بها الحساب. ثم أعاد إدخال يده في جيبه مرة ثانية ليخرج تلك الورقة.. لكنه لم يجدها. فتش جيوبه كلها، وهو ينظر إلى الأرض حوله ظانا أنها انسلت من بين أصابعه وسقطت على الأرض في المرة الأولى التي أخرج فيها النقود. ثم عاد إلى الوراء خارج الدكان عدة خطوات، وهو يركز بصره على الأرض، لعله يجدها هناك.. لكنه لم يعثر على شيء. تأكد خالد من ضياع تلك الورقة التي لم يكن يعلم ما كتبه الشيخ على وجهها. وهنا عاد إلى البقال وقال له، بأن الشيخ قد أرسله ليشتري له أشياء كان قد سجلها كعادته على ورقة صغيرة، وأعطاها له مع النقود، لكنه قد ضيع تلك الورقة وبقيت معه النقود ولا يعرف ماذا كان الشيخ يريد شراءه. كان خالد أثناء ذلك يحمل تلك الأوراق النقدية بيده، ويلتفت هنا وهناك وهو حائر فيما سيفعله.. وهنا قال له البقال عبارة ظلت راسخة في ذهنه بعدما

حفرت فيه. لقد قال له:(ليتك أضعت تلك النقود التي تحملها بيدك. ولم تضيع تلك الورقة التي هي أهم من النقود) فلو كانت الورقة موجودة الآن لأرسلت معك لذلك الشيخ الأمين كل ما يحتاجه، وسيدفع لي ثمنه – قرضا حسنا –فيما بعد. أما وقد ضيعت الورقة، فإني لا أستطيع معرفة ما يحتاجه، وما عليك إلا أن تعود ليكتب لك ورقة أخرى وتعود بها إلي.

انقلب خالد عائدا ولم يكن محرجا من الشيخ الذي يعرفه متسامحا، بل كانت تلك العبارة التي سمعها من فم البقال هي التي تجول في خاطره، وتلح عليه بالتفكير. كانت أصواتها ترن داخل أذنه ونفسه كما سمعها (تلك الورقة أهم من النقود) وتزاحمت أسئلته البسيطة على ذهنه. ما الذي يجعل هذه الورقة أهم من النقود؟ أليس الناس جميعا في حياتهم يسعون إلى كسب النقود. واكتنازها والعيش بها؟ أليست هي أهم شيء في هذه الحياة؟ وهي سر سعادة الناس وسبب شقاء الفقراء منهم والمساكين؟ والكثير من الأسئلة التي كانت تتزاحم على ذهنه، وتلح على عقله بضرورة إيجاد إجابات كافية عنها. كان خالد في طريق عودته يسير ببطء ممسكاً بيده تلك الأوراق النقدية وهو في حالة أقرب ما تكون إلى الشرود. حتى وصل إلى صديقه الشيخ الذي وجده في انتظاره حريصا على رعي قطيعه. ولما رآه من بعيد لا يحمل في يديه أي شيء من تلك الأشياء التي أرسله لشرائها، بادره بالسؤال رافعا صوته قليلا حتى يسمعه، هل أضعت النقود في طريقك؟ أراك لا تحمل شيئا مما كتبته لك على الورقة.

فأجابه خالد: كلا بل أضعت تلك الورقة. ولم أستطع معرفة ما

كنت تنوي شراءه. لم يغضب الشيخ عندما سمع ذلك، ونصحه بهدوء بضرورة اليقظة والانتباه الدائمين، حتى لا تضيع منه الأشياء، ثم أعفاه من العودة مرة أخرى إلى المدينة. وقال له بأنه سيذهب هو بنفسه في المساء إلى الدكان، ويشتري تلك الأشياء. وطلب منه أن يجلس إلى جانبه، لكن خالدا بقي واقفا، وطلب من الشيخ أن يكتب له ورقة أخرى، ليعود بها إلى المدينة، ويأتيه بكل ما يريده من أشياء، فرفض الشيخ ذلك وقال له:

– لقد تعبت في ذهابك وإيابك، ولن أتركك تذهب مرة أخرى، فالمدينة بعيدة وهذا سيتعبك أكثر، وما عليك إلا أن تستريح الآن، ستذهب أنت إلى الكوخ لتأكل بعض الطعام، وتتدفأ ثم تعود إلي. وسنبقى مع بعضنا حتى المساء، ثم أذهب أنا بنفسي إلى الدكان مثلما قلت لك من قبل.

لكن خالدا أصر على رأيه، وألح على الشيخ أن يكتب له ورقة أخرى، ليعود بها مسرعا إلى صاحب الدكان، وسيمسكها بيده هذه المرة حتى لا تضيع مثل المرة الأولى. كان الشيخ يبتسم وهو يسمع لقول خالد له (سأمسكها هذه المرة بيدي حتى لا تضيع) وأمام إصراره على ضرورة العودة من جديد. فما كان من الشيخ إلا أن أخرج وريقة صغيرة كانت طي المصحف، وكتب عليها بسرعة ما كان يود شراءه، وأعطاها لخالد الذي أمسكها باليد نفسها التي كانت قابضة على النقود، وانطلق بنشاط يقصد المدينة.

وما إن وصل إلى التاجر حتى سلمه النقود، و الورقة المطوية معا، وقبل أن يفتحها ذلك التاجر قال له: أرأيت كم تعبت لأجل ورقة صغيرة ضيعتها، فقطعت المسافة لأجل ذلك مرتين ذهابا

وإيابا. ولو كنت حريصا في المرة الأولى عليها، لما بذلت كل هذا الجهد الذي ضاع نصفه هباء، ولربحت الكثير من الوقت. ألم أقل لك: ليتك ضيعت الدراهم ولم تضيع تلك الورقة، لأنها أهم. وهنا عادت إليه تلك الأسئلة التي شغلت باله طيلة الطريق في عودته الأولى، ووقع في الحيرة نفسها التي ألمت به، ولم يجد لها جوابا. ما الذي يجعل هذه الورقة أهم من النقود؟ واغتنم الفرصة في وقوفه أمام ذلك التاجر البشوش، ولم يتردد في طرح ذلك السؤال عليه، لكن التاجر الذي كان قد بدأ يأخذ تلك الأشياء من الأدراج ويرتبها داخل كيس قال له:

– حين تذهب إلى ذلك الشيخ الحكيم. سيشرح لك هذا المعنى وسيجيبك عن سؤالك. والآن يجب عليك أن تذهب، فلقد قضيت وقتا طويلا في الذهاب والإياب، وطال انتظار الشيخ لك.

طيلة طريق العودة، كان خالد حريصا على مسك ذلك الكيس جيدا، كان يضعه بين يديه ويرفعه بكلتيهما إلى أعلى، حتى قارب صدره، ليحول بينه وبين الاصطدام الذي قد يلحقه من الصخور المدببة. أو الأشواك الحادة اليابسة، على جنبات الطريق الضيق، إن هو حمله بيد واحدة، وتركه يتدلى قريبا من الأرض، لم يكن ذلك الكيس ثقيلا حتى يرغمه على المشي ببطء، ولكن ذلك السؤال الذي لا يعرف جوابه هو الذي كان يشغله عن رجليه اللتين تركهما تخطوان وئيدا. وصل إلى صديقه الشيخ الذي شكره عما بذله من مجهود، لكن خالدا الذي لم يكن ينتظر جزاء على خدمته لذلك الشيخ الذي كان يحبه كثيرا، لم يتحمل الانتظار وبادر بطرح ذلك السؤال الذي أعياه جوابه.

– ما هو الشيء الذي يجعل ورقة صغيرة مكتوبة أهم من النقود ياعمي؟

ثم قصّ عليه حواره مع التاجر. بعدها أخذ الشيخ يبتسم وهو يتوسم في خالد الكثير من الذكاء، وبدل أن يجيبه عنه، طلب منه أن يحمل ذلك الكيس ويذهب به إلى الكوخ. ليأكل بعض الطعام ويستريح من تعبه. بعدما قطع المسافة التي تفصلهما عن المدينة أربع مرات، وفي المساء إن شاء الله سيجيبه عن ذلك السؤال. فاتجه خالد إلى الكوخ وبقي الشيخ واقفا مكانه يراقبه بعينيه الحانيتين، ونفسه يعصرها الأسى على ظروفه الصعبة وظروف الكثير من الأطفال الفقراء الذين لم يستطيعوا الالتحاق بالمدارس، وأخذ حظهم من التعليم.

كانت الرسائل تأتي متتابعة من عند سالم. وكان في كل واحدة منها يتحدث عن قسم كبير من تلك الأحداث التي عاشها خالد في صغره، خاصة تلك العلاقة التي ربطته بالشيخ، فكان إبراهيم يقرأ تلك الرسائل جيدا، ثم يعيد صياغتها بأسلوبه الخاص. حتى تنسجم مع الفصول السابقة التي كتبها. وكان يقرأ على مسامع أستاذه وزملائه فصلا منها كل أسبوع. فرصد في أحد الفصول تلك العلاقة الرائعة بين الشيخ الكبير في السن، وذاك الطفل الذي يقترب من مرحلة الشباب، وركز فيها على تفانيهما في خدمة بعضهما البعض وتقديمهما الكثير من التضحيات لأجل صداقتهما، حتى استمرت وأخذت تتعمق بفضل أخلاقهما العالية، التي كانت تحث على طاعة الكبير، والعطف على الصغير. وبقدر ما كان التلاميذ يعجبون بنباهة خالد، وذكائه، وحرصه على معرفة حقيقة

الأشياء – في كل مرة – فقد أعجبوا أيما إعجاب بشخصية ذلك الشيخ وقناعته وعطفه على خالد الفقير.

خرج خالد من الكوخ بعدما استراح فيه وتناول داخله بعض الطعام الذي كان الشيخ قد أرسله لشرائه في ذلك الصباح. واتجه إلى الشيخ وكله أمل في أن يعطيه جوابا شافيا عن سؤاله ذاك، وما إن وصله حتى بادره بالقول:

– والآن قل لي يا عماه عن الشيء الذي يجعل تلك الأوراق المكتوبة، أكثر أهمية من النقود.؟

لكن الشيخ لم يجبه في الحال، وراح يسأله إن كان قد استراح قليلا من تعبه، وإن كان قد تغدى، ولم يعد جائعا. بيد أن خالدا أجابه بسرعة، أخبره خلالها بأنه قد ارتاح جيدا، وأكل حتى شبع. ثم حاول لفت انتباهه إلى سؤاله الأول. لكن الشيخ استوقفه هذه المرة، وقد رأى في عينيه ذاك الإلحاح الذي يريد من خلاله معرفة الحقيقة. فبدأ يحدثه بلهجة فيها الكثير الكثير من الهدوء والتركيز.

– نعم يابني. إن الدراهم قليلة الأهمية، ويجب ألا يقضي الإنسان حياته في التفكير فيها والسعي وراء اكتسابها واكتنازها. فحياة الإنسان فانية، وأيامه التي تذهب لا تعود إليه وكل يوم نعيشه. فنحن نفقده من أعمارنا التي قدر لنا الله سبحانه وتعالى مددها، وحدد نهايتها. فعمر الإنسان قصير، ويجب ألا يصرفه كله في تحصيل المال، أو الدراهم. فهناك ما هو أهم منها. وهو الذي يرافقنا ويذهب معنا إلى الله في الدار الآخرة فالعمل الصالح أهم من المال. وإذا كان هذا الأخير ينفع في الدنيا فقط – إذا لم

نصرفه في أبواب الخير - فإن العمل الصالح وتقوى الله، تنفع في الدنيا والآخرة، وسيُجازى كل منا أمام الله حين نموت على حسناته، ويعاقب على سيئاته. وما الدراهم في هذه الحياة الفانية إلا وسيلة للعيش والتصرف بين الناس، وعلى كل واحد منا أن يحصل منها على قدر ما يكفيه، ولا يكتنزها، ولا يمنعها عن الناس المحتاجين، حتى لا يحاسب عليها يوم القيامة.

أطال الشيخ نصحه لخالد الذي كان يستمع إليه باهتمام. فقد كان يسمع هذا الحديث لأول مرة في حياته، وكان يتمنى أن يستمر الشيخ في حديثه ذاك الذي طاب له سماعه، وفتح له باب الفهم لكثير من أمور الحياة ولو في مستواه البسيط، لكن الشيخ توقف فجأة عن حديثه، وهو ينظر إلى ساعته ثم قال له: لقد حان وقت ذهابك. فلنسق القطيع حتى طرف الغابة، لتعود به إلى الإسطبل، قبل حلول الظلام. وغدا إن شاء الله سنلتقي.. لكن إبراهيم قال له:

- إنك لم تجبني عن سؤالي يا عمي. وهنا قال له الشيخ: لقد تعمدت عدم إجابتك عنه بسرعة. وما كنت أقوله لك ما هو في الحقيقة سوى تمهيد لما سأجيبك به من بعد. اطمئن سأجيبك إن شاء الله، وسوف تعرف بإذن الله تعالى السبب الذي يجعل الأوراق أفضل من النقود. ولكن قبل ذلك سأترك لك الليلة الفرصة، لتحاول الإجابة عن سؤالك بنفسك، فأنت ذكي، وقد تستطيع معرفة ذلك، وفهم الكثير من الأمور، دون أن تلجأ إلى أي أحد.

ودع خالد صاحبه عند مشارف الغابة، وذهب يسوق شياهه التي كان صوفها يشع بياضه من خلال حبيبات الندى التي تراكمت فوقه، كما كانت بطونها ملأى بما قضمته من العشب طيلة النهار.

وهي مندفعة في طريقها إلى وكرها، وتتصايح على صغارها التي كانت تشكل رتلا طويلا بجانبها وهي تنط وتقفز.

آوى خالد إلى ركنه داخل الإسطبل، بعد أن أحصى القطيع عند الباب وأغلقه، واتكأ على فراشه البسيط بعد أن تعشى، وحاول أن يفعل مثلما نصحه الشيخ، ويفكر في إيجاد جواب ملائم لذلك السؤال، لكن محاولاته لم تدم طويلا، فقد داهمه النعاس من شدة التعب، ولم يفطن من نومه إلا على وقع قرع عنيف على الباب، كان مصحوبا بصوت صاحب القطيع الذي كان غاضبا عليه، بسبب تأخره في النهوض باكرا، والسير إلى المرعى مع شروق الشمس.

فنهض وفتح الباب بسرعة على الأغنام التي خرجت متتالية. واتبعت طريقها الذي تعودت عليه كل يوم إلى الغابة، وسار خالد وراءها وهو يحث الخطى، ويتعجل لقاء صاحبه الذي صار لا يقدر على فراقه، ويتمنى أن يبقى في عشرته ليلا ونهارا لو استطاع ذلك. فوصل إلى الزاوية المعهودة التي يرعى فيها القطيع كل يوم، بالقرب من الكوخ. وبقي ينتظر وصول ذلك الشيخ الذي لم يكن يتأخر كثيرا عن لقائه. وفي مرات كثيرة كان يجده قد حضر قبله، فيراه من بعيد يجلس على صخرة، أو يسند ظهره إلى أحد الجذوع.

في ذلك اليوم انتظر خالد صاحبه الشيخ طويلا، وظل يتوقع طلته المفاجئة له من أية زاوية في تلك الغابة لكنه لم يأت. لقد حامت حوله الكثير من الظنون حول صاحبه في ذلك اليوم، وخمن كثيرا فيما يمكن أن يكون قد وقع له، ولم يستطع معرفة الأسباب التي أدت إلى غيابه. وأحس في ذلك اليوم بوحدته وعزلته، وكم

استغرب ذلك الشعور في نفسه، ولم يكن قبل معرفته بذلك الشيخ يحتك بالناس. وكان يقضي ليله ونهاره رفقة تلك البهائم العجماء التي لا تتكلم، و لم يكن يشعر معها أبدا بتلك الوحدة التي شعر بها في ذلك اليوم. واكتشف بعقله البسيط ذلك التأثير الكبير الذي تركه عليه الشيخ بمصاحبته له، وذاك الفراغ الهائل الذي تركه بغيابه عنه يوما واحدا. وعرف في ذلك اليوم فقط، مقدار الحزن الذي يلحق من فقد أحد والديه. وكيف يكون شعور اليتيم عندما يغيب عنه أعزّ قريب له. وظلت الهواجس تحيط به. فتارة يظن أن الشيخ مريض في كوخه. ولا يستطيع النهوض من مكانه. وهو لا يستطيع أن يترك القطيع وحده. ويذهب ليستطلع أمره... وتارة يظنه قد سافر بعيدا. لكنه سرعان ما كان يلغي ذلك الاحتمال، فلو كان في نيته أن يسافر، لكان قد أخبره من قبل بذلك، وقد قضيا قبله يوما كاملا مع بعضهما حتى المساء، وبقي كذلك يلفه الحزن ويجهش بالبكاء من حين لآخر، لكنه لم يفقد الأمل في عودته المفاجئة بابتسامته الخفيفة

مرت ساعات ذلك النهار ثقيلة على نفسه مكدرة بالحزن وبالشوق لرؤية صاحبه لمعرفة ما حدث له، وأدى إلى غيابه. حتى حان وقت الذهاب إلى البيت، فضرب خالد بعصاه عدة مرات بإيقاع سريع على حجر قريب منه، وما إن سمعت الأغنام ذلك الطرق الذي تعودت عليه، حتى سلكت طريقها في الخروج من الغابة، وقد أعطاها سيدها وراعيها إذنه بالرحيل.. كانت الشمس تلقي بحزم أشعتها المحمرة على الأرض. وهي على مقربة من الاختفاء وراء خط الأفق. حين وصل خالد إلى طرف الغابة لم

يتمكن بسبب الأشعة القوية من رؤية بنايات المدينة التي تقع بعيدا إلى الشمال الغربي. كان القطيع قد استدار إلى الجنوب يشق طريقه إلى زريبته ووكره، وسط تلك السهول. وواصل سيره على ما تركه له الفلاحون من مساحة ضيقة تسمح بمروره على حافة الحرث.. و بدت المدينة لخالد غير واضحة المعالم. في مشهد ضبابي بسبب أشعة الشمس التي كانت أفقية على عينيه ووجهه. ولم تمكنه من النظر إلى تلك البنايات الجميلة التي كان يمتع بها نظره من بعيد، فوضع يده أفقيا على جبهته فوق عينيه، حتى يظللهما ويغطي الأشعة عنهما، و يستطيع الرؤية جيدا.. حينها تراءى له شبح من بعيد لرجل يلبس عباءة بيضاء. ويحمل كيسا كبيرا، كان يلوح له بيده. و يطلب منه أن ينتظر حتى يصل إليه. فسارع خالد إلى مقدمة القطيع المتزاحم على الطريق وأوقفه. وبقي ينتظر وصول ذلك الرجل. وأثناء ذلك أعاد وضع يده من جديد على جبهته. فوجد الرجل قد اقترب منه أكثر.. وهنا طار خالد من الفرحة. بعدما عرف أن صاحبه الشيخ الذي افتقده طيلة ذلك النهار قد جاء.. وها هو يناديه من بعيد. وما إن اقترب منه كثيرا حتى أسرع إليه وارتمى في أحضانه. وقبل أن يسأله عن سبب غيابه. قال له الشيخ. بأنه قد حدث له أمر طارئ بالليل، وذهب لأجله إلى المدينة، وقضى نهاره كله فيها، ولم يستطع العودة باكرا إلى كوخه، حتى يلتقي به. ثم أعطاه بعض الفاكهة التي كان يحملها وقال له:

– إنك متعب فاذهب لترتاح، وغدا نلتقي إن شاء الله، ولا تنس أن تفكر في إيجاد جواب عن سؤالك... ثم توادعا وافترقا.

في الصباح وقبل وصوله إلى المرعى، شاهد الشيخ واقفا في انتظاره. ولم تكن تفصله عنه إلا دقائق. كان القطيع يسير فيها سيرا حثيثا ببطونه الفارغة بعدما قضى ليلة طويلة من ليالي الشتاء. وكان خالد وراءه يسرع خطاه للملاقاة.. كان الشيخ يحمل في يده ألبسة جديدة، أعطاها له. وأمره بأن يذهب إلى الكوخ ويغير ملابسه التي بليت وتراكمت عليها الأوساخ والأتربة.. ويشرب بعض القهوة قرب الموقد ويتناول رغيفا من الخبز ثم يعود إليه. في تلك اللحظة تذكر خالد أنه لم يشتر لباسا جديدا منذ زمن طويل ففرح كثيرا بتلك الهدية التي فاجأه بها الشيخ في عزّ ذلك الفصل القارس. وانطلق مسرعا إلى الكوخ. وما إن لبس تلك الثياب، حتى أحس بالدفء الذي بدأ يغمر جسمه.

كان السؤال ما زال يلح على ذهن خالد، لقد حاول أن يفكر فيه في الليلة الثانية لكنه لم يستطع أن يجيب.. وما إن عاد لصاحبه حتى أعاد عليه طرحه من جديد وهو واقف بجانبه، ينظر إلى لباسه الجديد بزهو ظاهر على وجهه. لكن الشيخ سأله إن كانت تلك الملابس قد أعجبته، وأسرع خالد ليجيبه بالإيجاب، ثم بدأ الشيخ في حديثه الرصين الهادئ:

لقد قلت لك أول أمس أن المال ليس هو كل شيء في الحياة. والعمل الصالح أفضل منه؛ لأن الله يجازي عليه عباده المخلصين. فأجابه خالد:

– نعم لقد قلت لي هذا وفهمته عنك جيدا.

فواصل الشيخ حديثه: لكن ما هو العمل الصالح؟ في نظرك.

فأجابه خالد :نتقن أعمالنا، ونحرص على تأدية الأمانة.

ونتصدق على الفقراء بما استطعنا.

فاستحسن الشيخ جوابه. وواصل حواره معه.

- ولكن هل الأعمال الصالحة لها درجة ومنزلة واحدة عند الله؟.

لم يعرف خالد الجواب هذه المرة وهز رأسه بإشارة منه تفيد بأنه لايعرف.

وهنا شرع الشيخ في حديث طويل. لم يقاطعه خالد أثناءه. فقال له:

- إن الله يقبل كل الأعمال الصالحة من عباده، لكن هذه الأعمال ليست بمنزلة واحدة حتى وإن كانت كلها مفيدة للشخص الواحد، أو للناس جميعا. فهناك سلسلة طويلة من هذه الأعمال. وأعلاها منزلة العلم - أي القراءة والكتابة -فبالعلم تستقيم الحياة، وتتفتح عقول الناس على فعل الخير، ومشاركة بعضهم البعض فيه. فالعلم هو سر سعادة الإنسان. وهو الذي يجعل لديه توازنا في حياته التي تكون هادئة ومريحة، إذا ارتكزت على العلم من جهة، وعلى العمل والخلق الحسن من جهة ثانية. ويكملان بعضهما بشكل ناجح، فالعلم بلا عمل لا ينفع، والعمل بلا علم قد يكون ضارا ولا يفيد.

كان ذلك الحديث الذي سمعه خالد باهتمام كبير، يتوغل في أعماق نفسه. و يترسخ في قلبه. وبدأ يشعر أكثر من قبل بالأسى على نفسه، من عدم دخوله المدرسة، وتعلمه القراءة والكتابة اللتين كان الشيخ يحدثه عن أهميتهما في الحياة.

وواصل الشيخ حديثه:

- فأنت يا خالد، أخلاقك حسنة. تحرص على الأمانة، وتقوم بعملك على أكمل وجه، لكن شيئاً مهماً ينقصك ألا وهو القراءة

والكتابة. ولو استطعت أن تتعلمهما، وجمعت هذه مع تلك، لصرت أفضل. وتغيرت حياتك كلها، وصرت تعرف الكثير من الحقائق في الحياة. أما إن بقيت أميّا فسوف تصعب حياتك أكثر كلما كبرت.

كان خالد قد نسي ذلك السؤال الذي كان حريصا من قبل على سماع جوابه من فم الشيخ، وقد أدهشه بحديثه ذلك الذي كان هادئا، وهو يمسك مصحفه، وقد طوى دفتيه على سبابته التي حدد بها موقع السورة التي كان يقرأها من قبل.

ثم قال الشيخ لخالد:

كنت قد طلبت منك أن تفكر في السبب الذي يجعل الأوراق العادية أفضل وأكثر قيمة من النقود؟ فهل عرفت السبب؟

فأخبره خالد بأنه لم يستطع معرفة ذلك السبب.

وهنا قال له الشيخ:

– الآن يمكنك معرفة ذلك بسهولة، إنه العلم. إنها الكتابة التي على تلك الأوراق، فبالعلم تستطيع الحصول على المال، أما المال فلا يمكنك أن تحصل به على حرف واحد، فالعلم هو أشرف الأعمال، وأفضل من المال الذي قد يذهب ويتبدد، أما العلم فيبقى وفضله عند الله كبير.

رأى الشيخ على وجه خالد بعض الكدر الذي سببه له أسفه على نفسه التي لا تعرف القراءة ولا الكاتبة. وانتهز تلك الفرصة وسأله:

– هل تريد أن تتعلم القراءة والكتابة يا خالد؟

كان السؤال مفاجئا وغريبا على خالد. ولولا ثقته الكبيرة في ذلك الشيخ، لظنه يستهزئ به. فكيف لمن هو في سنه الكبيرة – لقد

تجاوز الخامسة عشرة – أن يتعلم. وكان يظن أن التعليم، لا يلائم إلا من هم أصغر منه سنا، وقد فاته الأوان على ذلك بكثير.

فأجاب، ببعض الخجل الذي ظهر على محياه:

– ولكن الوقت قد فات كثيرا على هذا.

وهنا غيّر الشيخ من لهجته الهادئة، ورفع صوته قليلا وخاطبه:.. لا.. لا تقل هذا.. لا.. هذا غير صحيح، فالعلم لا ينتهي، وسن طالبه غير محدود، وباب العلم مفتوح لجميع الناس، في أي وقت أرادوا ذلك، واحفظ عني هذه الحكمة، والتزم بها من الآن: (أطلب العلم في كل سن. وأموت جاهلا..).

زال ذلك الخجل عن خالد. وأحس ببصيص قليل من الأمل يسري في قلبه أمام ما كان يقوله له الشيخ بثقة كبيرة، فقال خالد:

– تقول إنني أستطيع أن أتعلم القراءة والكتابة وأنا في هذه السن؟

فأجابه الشيخ: نعم تستطيع ذلك إن أردت. وستنجح بإذن الله تعالى، والوقت مازال أمامك واسعا، إذا كنت ترغب في ذلك فعلا. فالنجاح في أي أمر تريد تحقيقه، ليس معجزة أو مستحيلا أبدا. فإذا كنت تشعر بالرغبة في التعليم وكانت لديك الإرادة، فإنك تستطيع أن تتعلم، وتستطيع قراءة الكثير من الكتب، وتصبح قادرا على كتابة أي شيء تريده. أما إذ الم تكن لديك هذه الرغبة، فإن الناس جميعا لا يستطيعون إرغامك على التعليم، ولن تنجح فيه مهما طال الزمن.

لكن خالدا سأل الشيخ: – وهل أستطيع الذهاب إلى المدرسة، وألتحق بالأطفال الصغار فيها؟

لكن الشيخ سهّل عليه الأمر. وأجابه بأنه ليس في حاجة إلى الذهاب إليها الآن. ويستطيع هو أن يبدأ في تعليمه، ففرح خالد كثيرا بذلك. ورجاه أن يبدأ تعليمه في تلك اللحظة، لكن الشيخ طلب منه أن يبقى مع القطيع، ريثما يذهب إلى الكوخ، ويعود إليه سريعا.

عاد الشيخ يحمل معه الكيس نفسه الذي كان يحمله معه مساء أمس، في لقائه مع خالد على مشارف الغابة، ووضعه على الأرض وجلس بجانبه، وطلب من خالد أن يجلس قبالته، وشرع يحدثه:

-عندما سألتني ذاك السؤال. ما الذي يجعل الأوراق أفضل من المال؟ تعمدت ألا أجيبك حينها بسرعة، وأطلت معك الحديث، حتى انقضى الوقت، ثم طلبت منك أن تفكر في إيجاد جواب له. ولقد قمت بهذا من أجل أن أتأكد منك إن كنت ستنساه أم لا. والحقيقة أني وجدتك متمسكا به تحاول طرحه في كل مرة، ولديك رغبة كبيرة في معرفة الحقيقة، وأثناء الليل فكرت كثيرا فيك، ووصلت إلى اليقين، بأنك تستطيع أن تتعلم. ولكي نربح بعض الوقت، ذهبت في الصباح الباكر من يوم أمس إلى المدينة. واشتريت لك هذه الأدوات المدرسية، وهذه الثياب. وأحضرت لك كل الوسائل التي تستعملها في تعلم القراءة والكتابة، وأنت ترعى القطيع... ثم فتح الكيس، وأخرج ما كان بداخله من دفاتر وأقلام. ولوحة وطباشير. وبعض الكتب المزينة بالصور التوضيحية، ورتب تلك الأدوات فوق بعضها، بعد أن علمه أسماءها.. هذا قلم.. وذاك كراس.. وذلك كتاب ووضعها له داخل محفظة صغيرة. كان قد اشتراها له هي الأخرى، واتفق معه على أن يدرسه كل يوم مدة

ساعتين. وعليه أن يجتهد بعد ذلك، في إعادة قراءة وكتابة ما تعلمه عدة مرات في اليوم، حتى يرسخ في ذهنه، وبدأ خالد يتلقى درسه الأول من ذلك الشيخ الحكيم في أحضان الطبيعة، وقطيع الغنم يحيط بهما من كل جانب.

بدأ الشيخ يعلمه الأبجدية، فكتب له الحروف. ألف. باء. تاء. ثاء. بخط كبير على الصفحة الأولى من أحد الكراريس، وجعلها مرتبة من الأعلى إلى الأسفل، بحيث كتب كل حرف منها في بداية سطر، وترك ما بعده فارغا ليستطيع خالد أن يتدرب على كتابته عدة مرات في ذلك الفراغ. كتب له المجموعة الأولى من الحروف. وكان كلما كتب له حرفا منها. نطق له صوته، وطلب منه إعادة نطقه ليصحح له الشيخ بعد ذلك إن كان قد أخطأ.. كتب له الألف ثم أعطاه القلم فأمسكه. وطلب منه أن يعيد كتابته على السطر الأول. فرسم خالد خطا معوجا، شجعه عليه الشيخ كثيرا، وقارن له بين تلك الألف التي كتبها وبين الألف التي كتبت له من قبل. كان الفرق بين الألفين واضحا، وكان ما كتبه خالد مائلا بدرجة كبيرة، ومختلفا كثيرا عما كتبه الشيخ، ثم طلب منه أن يعيد كتابته مرة أخرى. وهو يقول له:

– ما هي إلا البداية التي تكون صعبة على جميع الناس، ثم سرعان ما يستسهلونها إذا ما داوموا على ممارستها والتدريب المستمر عليها. هكذا كنت في بداية حياتي حين ذهبت لأتعلم، ولم أعرف حتى كيف أمسك القلم.

في المحاولة الثانية. كتب خالد حرف الألف، كان معوجا هو الآخر. لكنه أفضل من الأول. فقارن الشيخ بينهما، وشجعه كثيرا

على تحسنه السريع، وكان في كل مرة يطلب منه قراءة ما كتبه.. واستطاع خالد في ذلك المساء القصير أن يتعلم كتابة الحروف الأربعة الأولى. من أبجدية اللغة العربية. ا. ب. ت. ث. وتعلم قراءتها جيدا خاصة الثلاثة الأخيرة منها، التي لم تكن تختلف عن بعضها إلا في عدد النقاط، ومكان وضعها فوق الحرف أو تحته.

شعر خالد بسعادة كبيرة تغمر قلبه. وهو يقود قطيعه أثناء عودته إلى البيت. بعدما ترك محفظته، وأدواته عند الشيخ. وكم مرة كان يتوقف في الطريق، ليكتب بعصاه على الأرض تلك الحروف التي تعلمها، ويتركها على جانب الطريق، تشهد أمام من يمر عليها وينتبه لوجودها على أن التعلم ممكن في كل سن ولاشيء مستحيل في هذه الحياة الدنيا.

في الصباح كان الدرس الثاني يقدمه الشيخ لتلميذه النجيب. وانتهى اليوم كسابقه. واستطاع خالد أن يتعلم مجموعة أخرى من الحروف كتابة و قراءة بعدما راجع له الشيخ المجموعة الأولى وامتحنه فيها.

لم يمر أسبوع على خالد حتى أتم معرفة حروف العربية كتابة وقراءة. وانتقل به الشيخ سريعا إلى الكلمات، وكثيرا ما كان يطالبه فيها باستعمال اللوحة والطباشير، وبنهاية الأسبوع الثاني كان خالد يستطيع كتابة المفردات البسيطة.

ذات يوم أرسله الشيخ إلى المدينة. ليشتري له بعض اللوازم. بعدما طلب منه هو نفسه أن يسجلها على ورقة صغيرة حتى لا ينساها. فكتب خالد بخطه المعوج والشيخ يملي: سكر. بن. زيت... وكم أدهشته نفسه حين وصل إلى المدينة، وأخذ يقرأ ما كتب على

طرقها وبعض جدرانها وأبوابها من عناوين ولافتات مثل: مدرسة. مستشفى. مسجد... وقد كان من قبل يعدها طلاسم لا يمكنه فهمها.

بعد شهر واحد صار خالد يستطيع قراءة كل الجمل التي كان الشيخ يكتبها له ويفهم معظمها. كما كان يطالبه بإعادة كتابتها من جديد، وحين اطمأن على مستواه الحسن في القراءة والكتابة شرع الشيخ يملي عليه قصار السور من القرآن الكريم، فيكتبها خالد ويطلع عليها الشيخ، ليصحح له ما قد يقع فيه من أخطاء إملائية. ثم يطالبه بحفظها.. حيث أظهر خالد قدرة سريعة على الحفظ. وكان الشيخ يطالبه من حين لآخر باستظهار كل ما حفظه طيلة الأسبوع. فيجده قد حفظه عن ظهر قلب، فيشكره كثيرا على ذلك ويشجعه على المواصلة.

وبعد مدة ثلاث سنوات، من تلك العلاقة الرائعة بين الشيخ. ذلك المعلم البارع وبين خالد ذلك الراعي صاحب الإرادة الصلبة والرغبة المتواصلة، استطاع هذا الأخير حفظ القرآن الكريم بالتمام، وإعادة قراءته عدة مرات.. وكم كان يتعجب من نفسه على تلك القدرة التي كانت لديه على الحفظ، في حين أنه كان ينسى الأشياء التي يرسله الشيخ لشرائها من الدكان.

كان مختار الصياد صهر ذلك الشيخ، يزوره كلما سمحت له الظروف بذلك، ويبقى عنده عدة أيام في ضيافته، وأثناء إحدى زياراته تعرف على خالد الذي وجده رفقة الشيخ فأعجبته رغبته في التعلم، وحرصه الدائم على قراءة وكتابة ما كان يمليه عليه الشيخ، وأخذت العلاقة بين مختار، وخالد تتوثق حتى صارا

صديقين. وقد كان يحدث لخالد أن يترك قطيعه عند الشيخ، ويرافق مختارا في رحلة صيد داخل أحراج الغابة. ويعودان بعدها إلى الكوخ محملين بما تيسر لهما. من طيور وأرانب.. كما كان مختار يشتري له بعض الكتب البسيطة من العاصمة ويأتيه بها، وذاك ما شجعه على المطالعة ورفع مستواه أكثر من قبل.

بعد سنوات صار خالد شابا، فقد تجاوز العشرين من عمره. وتقدم العمر بذلك الشيخ الذي أصابه المرض فجأة. وزارته ابنته عائشة ذات يوم رفقة زوجها، وانتظر ذلك الشيخ قدوم خالد، واجتمعوا كلهم، وهنا أوصى بذلك الكوخ وبستانه لخالد، ما دامت عائشة لا ترغب في ملكيتهما؛ لأنها تسكن بعيدا وليس لها من يقوم على خدمتهما.

استفحل المرض بالشيخ بعد ذلك، فنقلوه إلى المستشفى، حيث مكث فيه عدة أيام، ثم توفاه الله. فدفنوه في مقبرة المدينة، فبكى عليه خالد بكاء شديدا، وألم به الحزن على فراقه وكان يشعر من قبل بأنه أبوه الذي رعاه وعلمه، ثم افترقوا بعد ذلك. وعادت عائشة إلى بيتها مع زوجها، وبقي خالد وحيدا يسترجع ذكرياته الجميلة مع ذلك الشيخ الذي لم يستطع نسيانه، وقضى أياما يتنقل بين الأماكن التي كان الشيخ يجلس فيها ويقرأ القرآن أو يحدثه فيها.

هنا تحت هذه الشجرة فاجأني بتلك الأدوات المدرسية التي تعلمت بواسطتها. وهناك داخل الكوخ كان يترك لي نصيبي من القهوة والخبز.. وهنالك أوصاني بنفسي خيرا.. بعدما قصّ علي قصة أو حكى لي حكاية.. ولكن ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾.

مـرت الأيام بخـالد وكبـر، وتوقف عن رعي قطيع ذلك الرجل. وبحث عن عمل آخر في المدينة، وسكن في ذلك الكوخ، وبقي يداوم على العمل في بستانه في أوقات فراغه ويراجع القرآن في ذلك المصحف الذي تركه له الشيخ.. وتزوج بعد سنوات، وأقام عرسا بسيطا، دعا إليه صديقه مختارا مع زوجته عائشة لحضوره. وعاش رفقة زوجته سنواتهما الأولى هانئة وسعيدة، لا يعكر صفوها شيء. وبقي مختار محافظا على صداقته مع خالد الذي كان يزوره، ويبقى معه أياما يصطاد خلالها ويسترجع معه تلك الذكريات الجميلة التي عاشاها في ضيافة الشيخ.

مرت سنتان على زواج خالد. أنجبت له زوجته ولدا سمياه سالما، وفرحا به فرحا كبيرا، واهتما بتربيته كثيرا حتى تجاوز مرحلة الرضاع ثم الحبو.. وصار يمشي عندما قاربت سنه الثانية.. لكن سعادة تلك الأسرة البسيطة لم تدم طويلا، إذ مرضت الأم وسرعان ما توفيت، وتركت زوجها وابنها الصغير. ولم يكن أمام خالد إلا أن يتوقف عن عمله اليومي في المدينة، ويتفرغ لتربية سالم. ويكتفي في رزقه بما كان يدره عليه ذلك البستان كل سنة من غلة بسيطة. بالإضافة إلى بعض الأعمال الجانبية التي كان يقوم بها.. وأثناء ذلك كان صديقه مختار يكثّف له زياراته، ويساعده بما يستطيع من المال، بعدما ألمت به مصيبة وفاة زوجته، وتوقفه عن العمل الذي كان المصدر الرئيس لدخله وقوته.

لم ينجب مختار من زوجته عائشة أولادا، فكان كلما زار صديقه خالدا حمل معه بعض الهدايا لابنه سالم، الذي كان يلاعبه مدة طويلة، ويشعر تجاهه بعاطفة الأبوة الجارفة.

وذات مرة جاء مختار في إحدى زياراته. التي صارت متقاربة من بعضها أكثر من قبل.. فدخل إلى البستان، ولم يجد داخله خالدا منكبا على عمله مثلما تعود.. ووراءه ابنه سالم يتبعه أينما ذهب. فظن أنهما داخل الكوخ.. فنادى بأعلى صوته ليسمعه، ويخرج لملاقاته. لكنه لم يجبه أحد.. وأعاد النداء ثم أعاد.. دون جدوى، فظن أن خالدا قد ذهب وأخذ معه ابنه إلى المدينة، لقضاء بعض المصالح.. وربثما يعودان في المساء. عليه أن يغتنم الفرصة. ويذهب ليصطاد في الأماكن القريبة. فترك حقيبته التي كان داخلها بعض الهدايا لسالم. بالقرب من الكوخ.. واستل منها بندقيته، وذهب ليصطاد.. ولم يعد إلا في المساء قبيل غروب الشمس، معتقدا أن خالدا قد عاد إلى بيته. وبقي فيه ينتظر عودته لكنه ما إن دخل إلى البستان حتى رأى حقيبته على حالها. وفي وضعها الذي تركها عليه.. ولم يمسسها أو يزعزعها عن مكانها أحد، فاقترب من الكوخ ونادى بأعلى صوته على خالد.. لكن هذا الأخير لم يجبه، وظل ينادي. وهو يقترب حتى وقف أمام الباب وهنا أرهف سمعه. فتناهى إليه صراخ هزيل لطفل صغير.. فدفع مختار الباب بسرعة. ليجد سالما يبكي، وهو يهز رأس أبيه الممدد. يريد إيقاظه من نومه الذي طال.. ولم يكن الصغير المسكين، يعلم أنه قد مات.. وكان له في ذلك الوقت أربع سنوات من عمره.. كانت الصدمة كبيرة على مختار، ولم يكن يعرف أحدا في المدينة ليذهب إليه ويطلب مساعدته.. كما كان الوقت ضيقا، والشمس تسارع إلى المغيب.. فأسرع في حفر قبر تحت تلك الشجرة. أمام باب الكوخ. ودفن صاحبه خالدا فيه. وأسرع فحمل سالما الذي كان جائعا

وحمل حقيبته وبندقيته وذهب به إلى المدينة. فاشترى له بعض الأكل. وعاد به إلى بيته أثناء الليل. والدموع لا تفارق خده، حزنا على صديقه خالد. هناك استقبلته عائشة. وأخذته في حضنها.. وربته تربية حسنة.. وصارت تشعر بأنه ابنها، كما كان هو متعلقا بها تعلقا شديدا.. وانقطعت زيارات مختار لتلك الغابة والصيد في أرجائها، بعدما فقد فيها صديقيه اللذين كان يزورهما، ويقضي رفقتهما أياما سعيدة في ضيافتهما، وهما الشيخ في البداية، ثم خالد الذي سكن الكوخ بعده.

كبر سالم قليلا، ودخل المدرسة وأظهر فيها نجابة. وذات يوم أخبره أبوه مختار بقصة حياته التي كان يحتفظ منها ببعض الصور القليلة في ذاكرته البعيدة. ووصف له الحالة التي وجده عليها، وهو صغير يبكي حول جثة والده، وشرح له علاقة أمه عائشة التي ربته، بالشيخ صاحب ذلك الكوخ، الذي انتقل لوالده خالد فيما بعد. فاهتم سالم كثيراً بهذا، وطلب من أبيه مختار أن يذهب به ذات مرة. لزيارة ذلك الكوخ. واكتشافه من جديد. فوعده مختار بذلك، وانتظرا حتى حل فصل الربيع.. في أحد أيام الربيع المشمسة قدما إليه. فعرف سالم قبر أبيه وقرآ عليه الفاتحة، ثم دخلا الكوخ، وبقيا فيه مدة يشاهدان ما تركه فيه من أثاث، ويقلبانه.. وهناك قرأ سالم تلك الوصية التي كانت مكتوبة على الجدار، فرسخت بذهنه، واهتم بأمرها كثيرا، وقد حاول في ذلك الوقت الضيق، البحث عن ذلك الكنز، لكن أباه مختارا قال له:

لا تهتم بهذا الأمر الآن. وما عليك إلا أن تجتهد في دروسك، وعندما تكبر بإذن الله تعالى تستطيع أن تأتي، وتقوم على خدمة

بستانك، وتبحث عن كنزك. وهكذا صار سالم لا يزور ذلك الكوخ إلا مرات قليلة في السنة، بسبب بعد المسافة بينه وبين سكنه في العاصمة.. حتى زاره ذات مرة ووجد شخصا آخر قد دخله وقام بتنظيفه وترتيب أثاثه.. وسقى أشجاره واعتنى بها. فترك له فوق الطاولة تلك الرسالة التي عرفت إبراهيم به وبعدها صارا صديقين يتراسلان باستمرار.

أخذت فصول القصة - التي كان يكتبها إبراهيم في المدرسة - تتشعب. وكثرت شخصياتها وتعددت بين الرجال والنساء، بعدما كانت في فصولها الأولى مقتصرة على قلة منهم. تمثلت في مصطفى (البطل) وأبيه، وشخصية سالم الغائبة عن الأحداث دائما.. كان إبراهيم يعلم أن الحبكة القصصية، تقوم على تشعب الأحداث في البداية، ثم لملمتها، لتجتمع في نسق وخط واحد. يسد الكثير من الثغرات التي تعترض الفهم وتجيب عن الكثير من الأسئلة.. وحين تنسجم مع بعضها البعض في نسيجها المتناسق تؤدي بدورها إلى النهاية التي كان التلاميذ يتشوقون إلى معرفتها. كان إبراهيم - حريصا- وهو يكتب تلك القصة الطويلة ويقرأ فصولها متتالية في المدرسة، على أن يضمنها كل التفاصيل التي كان سالم ينقلها إليه في رسائله. فكتب في أحد فصولها قصة موت ذلك الشيخ. بعدما أوصى بملكية الكوخ والبستان لخالد الفقير، ثم زواج خالد. وازدياد سالم وموت الأم بعد ذلك.. وأخيرا موت خالد. وانتقال سالم الصغير للعيش في كنف أسرة مختار الصياد. تلك الأسرة التي لم يرزقها الله بالأولاد، لكن احتواءها لسالم وتربيته. جعلها تشعر بأنه ابنها. أعجب التلاميذ مثل المرات

السابقة. بهذا الفصل الذي أجاب فيه إبراهيم عن الكثير من الأسئلة التي بقيت عالقة بأذهانهم، وعرفوا صاحب ذلك القبر المجهول. كما عرفوا أن سالما ذاك هو ابنه. كما أعجبوا كثيرا بأواصر المحبة والصداقة التي ظلت تربط الأسرتين ببعضهما. حتى وإن مات ذلك الشيخ، وترك خالدا وحده. فإن صهره مختارا لم يقطع عنه زياراته ومساعداته، وظل وفيا لصداقته، وحين مات خالد ظلت عائشة وفية لابنه سالم، واحتضنته في بيتها، وربته كأنه ابن لها.

كان فصل الصيف على الأبواب، وقد دلت عليه تباشيره الأولى. فارتفعت درجة الحرارة، وبدأت السنابل تأخذ اصفرارها المتسارع في تلك السهول إيذانا منها للفلاحين بقدوم موسم الحصاد. وكادت الدروس تنتهي إيذانا منها للتلاميذ بقدوم أسبوع الامتحانات. وحصاد كل منهم لنتائج عمله. واجتهاده طيلة السنة. ولم تكن تفصلهم إلا أيام قلائل عن تلك الامتحانات. وعليهم أن يركزوا جيدا خلالها على الدروس ومراجعتها. لعلهم يعوضون بذلك بعض ما قد فاتهم من قبل. ولم تكن أمام إبراهيم إلا حصة واحدة، ليتم فيها قصته، ويصل بها إلى نهايتها. لقد كان يعتمد على رسائل سالم في إجابته عن الكثير من الأسئلة التي كانت عالقة في ثنايا القصة، فقد عرف من هو صاحب القبر، وكتب عن ذلك. وعرف التلاميذ معه هذا، وعرف من كتب الوصية. كما عرف من هو سالم، وعرف كيف انتقلت ملكية الكوخ لخالد. وعرف الكثير من الأشياء التي كان التلاميذ يسألونه عنها. لكنه طيلة تلك الشهور الطويلة، التي كان يتردد فيها على الكوخ، وطيلة تلك الصفحات

التي كان يكتبها ثم يقرأها في المدرسة.. لم يستطع معرفة مكان ذلك الكنز. ولا حتى الطريقة التي يمكن اعتمادها في البحث عنه. حتى سالم الذي كان يراسله باستمرار. كان يقول له بأنه لم يهتد لطريقة يمكنه من خلالها العثور عليه، وليس أمام إبراهيم حيلة يواجه بها زملاءه المتلهفين إلى معرفة النهاية، ومكمن الكنز فيها. ومن يكتشفه.. وقد كان جميعهم ينتظر الحصة الأخيرة من تلك القصة الطويلة التي يعرفون من خلالها الطريقة التي تم بها تفسير تلك الوصية. أحس إبراهيم بهذه الورطة التي وقع فيها، وبقي طيلة أيام مشغولا بها، ويبحث عن حل ملائم تنتهي به تلك القصة. ويرضى أستاذه عنه.... ذهب في غضون ذلك الأسبوع إلى البستان ولم يكن لديه هناك ما يقوم به من عمل كانت الأشجار في بداية فصل الصيف قد بدأت تنضج بواكير فاكهتها الجيدة، إذ كانت أغصانها مثقلة بتلك الغلال اللذيذة، التي كانت تتدلى بوفرة.. وأمام البهجة التي شعر بها وهو يتجول بينها، لمعت في ذهنه فكرة جديدة، رأى أنها تصلح نهاية سعيدة لتلك القصة، وهي أن تلك الثمار التي جادت بها الأشجار، بعدما اهتم بها هي نفسها ذلك الكنز، الذي تتحدث عنه الوصية، فالنجاح في حد ذاته بعد العمل كنز، ودخل إلى الكوخ مسرعا، وقرأ تلك الوصية التي كانت لا تزال مكتوبة على الجدار وهي يقول (ارع الأشجار وأطعم الطيور. واحرس الكوخ من جهاته الأربع. ستجد كنزا قد خبأته لك) توقف عندها. يريد تفسيرها بأسلوب، يلائم اعتباره لتلك الثمار في حد ذاتها هي الكنز. وتأمل الفعل الماضي خبأته، وطرح سؤاله على نفسه: من خبأ.؟ ثم أجاب: دون شك الأب هو الذي خبأ ذلك الكنز

لولده سالم. ولكنني أريد أن أقول بأن ثمار البستان هي الكنز الذي كان مخبأ. والأب لم يكن يخبئها من قبل. فالأشجار هي التي كانت تخبئها. ولم تكشف عنها. ولم تخرجها على أغصانها. إلا بعد أن عمل واجتهد في رعايتها وسقايتها. وكان الأمر سهلا عليه حين أعاد قراءة تلك الوصية بطريقة أخرى وفيها نسب الفعل الماضي للأشجار. وليس للأب فالأشجار هي التي خبأت. وليس الأب وما عليه إلا أن يضع السكون على حرف التاء في ذلك الفعل، بعد أن يضع الفتح على همزته فيصير (خبأَ تْهُ) لك - أي أن الأشجار قد خبأت لك كنزا، وتنتظر منك أن تبذل مجهودك تجاهها، حتى تعطيه لك في شكل ثمار، وغلال طازجة.

استراح إبراهيم لهذا التفسير المعقول. ورأى أن يختم به قصته تلك. فكتب في نهايتها إن سالما قد جاء وزار صديقه (مصطفى). وذهبا إلى البستان، وجمعا محصوله، من الغلال وقاما ببيعه وأخذ ثمنه، ورأيا أن ذلك هو الكنز الذي يتجدد كل عام، إن واصلا رعايتهما لذلك البستان، وأن العمل المستمر والإخلاص فيه هو كنز الإنسان الذي يتجدد دائما في حياته.

قرأ إبراهيم الفصل الأخير من قصته، وأعجب أستاذ اللغة العربية كثيرا، بتوظيفه لأساليب اللغة العربية، في حل بعض المشكلات التي تطرحها الكتابة، وتضعها في طريق الكاتب الذي عليه أن يعتمد على ذكائه وخبرته مهما كانت بسيطة -لحلها وجعل ذلك الحل منسجما مع أحداث القصة، ومنحه علامة كاملة على قدرته المتميزة في الاستمرار. كما أعجب التلاميذ أيضا بهذه النهاية التي لم يتوقعها أحد، وكان جميعهم يظن أن الكنز موجود

فعلا، في مكان ما من الأماكن الموزعة بين الكوخ والبستان، وأكد لهم إبراهيم أن لكل واحد منهم كنزه الخاص به، الذي يستطيع استخراجه بالعمل المستمر والمثابرة على تحصيل الدروس، فالكنوز ليست حكرا على أحد، وهي متاحة أمام كل من لديه الإرادة والنية الخالصة في الحصول عليها.. إلا أنهم أثناء المناقشة انتقدوا إبراهيم في عدم تحليله لكل عناصر الوصية، وذكروه بإهمال العنصرين الآخرين وهما: إطعام الطيور، وحراسة الكوخ من جهاته الأربع. اللذين لا علاقة لهما بهذا الكنز الذي استودعه الله في الأشجار لتخرجه إلينا إذا ما اهتممنا بها، واعترف إبراهيم أمام زملائه بأن الكاتب لا يستطيع أن يجيب عن كل الأسئلة التي يطرحها عليه الآخرون، فهناك دائما ثغرات في كل كتاب، أو في كل قصة نتعرض لها بالقراءة، ولا يوجد من بين الكتب كلها سوى كتاب واحد لا نقص فيه، ولا يلحقه النقد وهو القرآن الكريم. واغتنم الأستاذ هذه الفرصة ليحث التلاميذ على أهمية اقتحام مجال الكتابة والاستمرار فيه، وشجعهم على عدم الخشية من الوقوع في الأخطاء التي يصححونها فيما بعد، حتى ترتقي أساليبهم إلى مستواها العالي، وختم الحصة بالثناء الكبير على فكرة إبراهيم. التي قال فيها:

- إنه لكل منا كنزه الخاص به الذي يمكنه استخراجه بالعلم والعمل.

مرت الامتحانات. وحصل إبراهيم فيها على معدل عال جدا. مكنه من الانتقال إلى القسم الأعلى بامتياز. وفي حفلة ختام السنة الدراسية. تم تكريم الفائزين في مسابقة الكتابة وكانوا مجموعة

قليلة. وكان على رأسهم إبراهيم الذي حصل على الجائزة الأولى. وطلب منه مدير المدرسة قبل أن يسلمه تلك الجائزة أن يقدم ملخصا وجيزا لقصته تلك، فلخصها بأسلوب جميل، وصفق له كل تلاميذ المدرسة وأساتذتها. وتسلم بعد ذلك جائزته. التي شعر خلالها أنه يتسلم ذلك الكنز فعلا.

عاد إلى البيت في مساء ذلك اليوم الأخير من السنة الدراسية والفرحة لا تسعه بتلك الجائزة. وما إن دخل حتى صارت فرحته فرحتين، وجائزته جائزتين. حين أخبرته أمه بأن ساعي البريد قد جاء في منتصف النهار، وترك له رسالة من عند صديقه سالم ففتحها إبراهيم بسرعة، وعلم من خلالها بأن سالما سيزوره في نهاية ذلك الأسبوع بعد اختتام السنة الدراسية.

تهيأ لاستقبال صديقه الذي سيقيم معه دون شك في منزله، فأعاد بمساعدة أمه ترتيب غرفته، وأضاف لها سريرا ثانيا يمكن لسالم أن يستريح عليه أثناء الليل. أما في النهار فكان يعلم أنهما يقضيانه في الغابة يعملان أو يتحدثان وسط ذلك البستان أو داخل ذلك الكوخ.

في يوم الجمعة من ذلك الأسبوع سمع إبراهيم طرقا خفيفا على الباب، وأسرعت أخته الصغرى إلى فتحه. فوجدت طفلا لا تعرفه يقف أمامه. ويحمل على ظهره حقيبة صغيرة وبادرها بالسؤال:هل إبراهيم بن محمد يسكن هنا؟

فأجابته الطفلة: نعم، وإنه هنا بالداخل.

فقال لها سالم: قولي له إن سالما قد وصل. وهو ينتظرك أمام الباب.

عادت الطفلة إلى أخيها مسرعة، وأخبرته، فهرع إبراهيم إلى الخروج، واستقبال صديقه الذي رآه لأول مرة بالأحضان. ثم دعاه إلى الدخول، ووجهه إلى حجرة الاستقبال. ونادى على أفراد أسرته الذين عرفه بهم. وكم كانت فرحتهم كبيرة بقدومه وزيارته لهم. وقد كانوا يكنون له الكثير من المحبة والحنان، على ظروف تربيته وفقدانه المبكر لوالديه.. لكن سالما الذي كان ودودا ومؤدبا كانت تظهر على محياه بعض علامات التوتر والقلق، وظنها جميع أفراد الأسرة بما فيهم إبراهيم بأن ذلك عائد إلى الإرهاق الذي لحقه من سفره الطويل.. بعدما تغديا وصليا ظهر الجمعة في المسجد القريب. عادا إلى البيت وبدءا يحضران نفسيهما لزيارة ذلك الكوخ. وهنا نصحهما الأب محمد بعدم الذهاب ذلك المساء، فسالم كان متعبا وعليه أن ينام قليلا ويستريح، وبعد ذلك سيكون لديهما الكثير من الفراغ فيما يلي من الأيام. ويمكن أن يستغلاه في الذهاب إلى البستان.. دخل سالم مع صاحبه إبراهيم إلى غرفته الخاصة، وهناك بين له سريره الذي يمكنه أن ينام عليه، ثم تركه ليستريح قليلا وأغلق عليه الباب.. وخرج مع أبيه إلى السوق ليشتري اللحم والفاكهة والمشروبات. ويعود بها سريعا إلى أمه، لتحضر للعائلة عشاء مميزا عن باقي الليالي السابقة احتفالا بقدوم ذلك الضيف العزيز عليهم جميعا. وفي المساء خرج إبراهيم رفقة صديقه في نزهة جابا خلالها شوارع المدينة فعرفه على بعض معالمها. خاصة مدرسته التي كان يزاول بها دروسه، منذ ثلاث سنوات. وحين غربت الشمس عادا إلى البيت، وهما يتجاذبان أطراف الحديث، وجله كان حول ذلك الكوخ والبستان المحيط به.

لقد لاحظ إبراهيم على صديقه سالم أن التعب قد زال عنه قليلا بعدما نام وأخذ قسطا من الراحة في القيلولة. لكن التوتر لم يبارحه كله، وإن كان قد نقص عنه قليلا، فأسر بذلك لوالديه اللذين طمأناه بالقول، أن هذا أمر طبيعي ولعله لم يسافر بمفرده قبل اليوم، ولم يبتعد عن أمه وأبيه من قبل. وهذا الشعور يكون طبيعيا في المرات الأولى، لكن سرعان ما يتخلى عنه بعد ذلك. ويكتشف لذة السفر والتجوال واللقاء بالأصدقاء.

على مائدة العشاء كان الجو وديا. وكان جل حديث الأب عن ذلك الشيخ الكريم الذي كان يسكن الكوخ، إلا أن سالما لم يشارك في ذلك الحديث إلا بالقيل، وقد ظنه صديقه إبراهيم أنه قد خجل من الحديث مطولا أمام أفراد أسرة لم يعرفهم إلا منذ ساعات. وأعطاه في سره بعض الحق في ذلك، فكثيرا ما كان يحدث هذا لإبراهيم عندما يكون رفقة أبيه ويلتقيان ببعض أصدقائه، الذين لم يعرفهم من قبل. فكان لا يتحدث معهم إلا قليلا، ثم يركن إلى السكوت والاستماع لأحاديثهم الطويلة.

في الصباح نهض الصديقان باكرا، وهما عازمان على الذهاب إلى البستان، والعمل فيه طيلة نهارهما، فحملا بعض العدة التي يحتاجانها كما حملا معهما فطورهما الذي أعدته لهما الأم باكرا. وأوصاهما الأب قبل أن ينطلقا بضرورة المحافظة على نفسيهما. وألا يعملا إلا في راحة، ولا يقومان بحمل الكثير من الفاكهة، لأنها ثقيلة على جسديهما ونصحهما بأن يجمعا ما قطفاه منها في مكان ظليل. أو داخل الكوخ. وألا يحملاه إلى المدينة. وعليهما أن ينتظراه في المساء. فسوف يأتيهما هو نفسه. ويحمل عنهما تلك الأثقال.

وركز لهما على أن الأطفال يجب ألا يقوموا بالأعمال الشاقة التي ترهقهم. وتعرقل نموهم. وتقلل حظوظ نجاحهم في المدرسة.. ولا بأس إن قاموا ببعض الأعمال الخفيفة التي تساعدهم على الاكتشاف، وتمكنهم من التمتع بمباهج الطبيعة.

أثناء طريقهما شاهد سالم مواكب الحصاد التي خرج إليها الرجال باكرا، يغتنمون ساعات الصباح المنعشة، وجوها اللطيف قبل أن تقتحم الشمس بأشعتها اللاهبة تلك السهول. فكانت السنابل المثقلة بالحبوب، تسارع إلى سقوطها، بمجرد ملامسة المناجل الحادة لقصبها الهش، لتتجمع في كتل كبيرة سرعان ما ينقلها فريق آخر من العمال على ظهور الدواب، إلى البيادر التي كانت محضرة لاستقبالها بالدرس، حتى تخرج حبوبها صافية من القمح والشعير.. كما رأى بعض الموسورين منهم من اعتمد على آلة للحصاد فكانت تحصد في طريقها مساحة ما يحصده ستة رجال، أو أكثر. وتفوقهم في السرعة ورأى قبل وصوله إلى الكوخ الكثير من الأشياء التي لم يرها من قبل. وقد كان يقرأ عن بعضها في الكتب، أو يشاهدها على شاشة التلفزيون فقط.

وصلا إلى البستان. كانت أشجاره قد نضجت فاكهتها، وحان وقت قطافها، توقفا عند قبر خالد وقرآ عليه فاتحة الكتاب، مرا بعد ذلك إلى الكوخ وقرآ تلك الوصية، وهنا التفتا إلى بعضهما، وابتسما ولم يبادر أي أحد منهما بالحديث عنها، ثم شرعا في قطف تلك الفاكهة، وهما يحافظان على أغصانها من الانكسار، ويضعان ما استطاعا قطفه في سلتين صغيرتين. كان كل واحد منهما يعلق واحدة منهما في ذراعه. فإذا امتلأت، ذهب بها إلى

الظل الوارف، تحت تلك الشجرة العملاقة، وأفرغها في سلة كبيرة.

كان الجو معتدلا وبهيجا في ذلك الصباح، وكان إبراهيم ينتظر من صديقه، أن يكون مبتهجا أكثر بهذه المناسبة، التي عاد فيها إلى بستانه. وبدأ يقطف فيها غلاله، ولكن سالما ظل مكدرا وحزينا. ولم يتفاعل مع تلك المناسبة إلا بالقليل من الحماس، فقد كان شروده لافتاً. كما كان لا يحدث إبراهيم إلا مجاملة واختصارا. وهنا قرر إبراهيم أن يبادر إلى الاستفسار منه، عن ذلك الحزن الذي كان يخيم عليه. وقد بدأ الظن يتسرب إليه، في أنه قد قام بأي عمل أساء فيه إلى نفس صديقه.. وما إن سأله إبراهيم عن سبب كدره، حتى اغرورقت عيناه بالدموع. وأخذ السلة التي كانت نصف ممتلئة من ذراعه. ووضعها على الأرض وأخبر صديقه بأنه قد ترك أمه عائشة مريضة جدا. لقد ألم بها مرض صعب، منذ شهر وزارت لأجله الكثير من الأطباء. الذين كانوا ينصحونها دائما بضرورة إجراء عملية جراحية دقيقة، ولكن أباه مختارا لا يملك أجر تلك العملية.. فهو عامل بسيط، ومرتبه لا يكاد يكفي عيشهم البسيط، وأخبره بأن ذلك الأب الطيب، قد حاول في العديد من المرات أن يقترض مبلغ تلك العملية من بعض أصدقائه، لكنه كان يعود دائما من عندهم بلا شيء لأنهم كانوا فقراء مثله، وعمالاً بسطاء. وإن كانوا طيبين وقد ترك سالم أسرته في غم. فالأم لا يتوقف عنها الألم الذي صارت أوجاعه لا تستكين للدواء. والأب مهموما لا يدري ما يفعله تجاهها بفقره. وقلة ماله. أما هو -سالم- فقد فضل المجيء، لأنه صار لا يستطيع البقاء والنظر إليها، وهي

تتعذب، وهو واقف أمامها مكتوف اليدين.

لم يكن أمام إبراهيم، الذي تأثر كثيرا لسماعه خبر مرض أم سالم إلا أن ذكّره بفضيلة الصبر، عند النفس المؤمنة بالله. وضرورة الثقة التامة فيه سبحانه وتعالى. فهو الذي يشفي من المرض، وما عليه إلا أن يتمسك بالصبر، والتضرع إليه.. ثم أضاف: نستطيع أن نجمع هذه الغلال، ويبيعها لنا أبي في السوق. وثمنها قد يساهم في أجر هذه العملية التي يمكن تدبر ما نقص من مبلغها بطرق أخرى. فوافقه سالم على ذلك وعادا إلى العمل بجد.. وإن كان كلاهما يعلم، أن ثمن الفاكهة كله، لا يفي إلا بقسم بسيط من أجر تلك العملية الدقيقة.. إلا أن ذلك كان دافعا لهما لمضاعفة نشاطهما.. ولم يستريحا إلا وقت الظهيرة، حين توسطت الشمس كبد السماء، فجلسا تحت ظل تلك الشجرة الكبيرة وتناولا فطورهما هناك، هربا من حرارة الكوخ اللافحة. وقد أضافا لوجبتهما بعض الفاكهة، التي قاما بغسلها في النبع، وأثناء ذلك شاهدا سربا من الطيور المهاجرة، يحط فوقهما على أغصان تلك الشجرة، ويجثم هناك متظللا بأوراقها. ولم يغادرها إلا حين خفت الحرارة، وهبت أولى النسائم وقت الأصيل، فصفق أجنحته دفعة واحدة، وطار إلى أعلى محلقا حول البستان، ثم اتخذ وجهة واحدة في طيرانه، حتى اختفى عن ناظريهما واصل الصديقان عملهما الذي كانت ترافقه أحاديثهما المتنوعة. كما نقص ذلك الكدر والقلق عن سالم، فشرع يحدث صديقه عن الكثير من الأشياء، ويقص عليه الكثير من القصص التي وقعت له، أو وقعت لأحد رفاقه في المدرسة.. وما كان المساء يصل حتى كانا قد ملآ سلتين كبيرتين من

تلك الأشجار القليلة، وجلسا بجانبهما ينتظران قدوم الأب الذي وعدهما بالمجيء.

لم يدم الوقت طويلا حتى سمعا خشخشة في تلك الأجمة.. أطل بعدها الأب برأسه عليهما من خلال أوراقها الكثيفة، وقد رافقه أحد أصدقائه ليساعده في حمل تلك الأثقال، فحمل كل واحد منهما سلة على كتفيه. وسار الأب في المقدمة، يتبعه صديقه. وتأخر عنهما إبراهيم وصديقه سالم، حتى أغلقا باب الكوخ، بعدما وضعا داخله عدتهما، وحملا الأواني التي جلبا فيها طعام الغداء، ولحقاهما.

في السوق باع الأب تلك الفاكهة الطازجة بمجرد ما عرضها في زاوية الخضر والفواكه.. سلة من المشمش وأخرى من التفاح، وما إن شاهد التجار حجمها، وجودتها، حتى تنافسوا في محاولة كل منهم شراءها بثمن يفوق الثمن الذي حدده سابقه. وما هي إلا دقائق معدودة. حتى باع الأب السلتين معا، لأحد التجار الذي قدم سعرا أكبر، فأخذ التاجر سلعته، وسلم للأب ثمنها الذي كان قليلا - رغم أنها الأغلى في السوق -فسلم الأب بدوره تلك الدراهم إلى سالم. وحرص عليه أن يمكنها جيدا في جيبه، حتى لا تضيع وشكر صديقه الذي ساعده، وحمل معه ثقلها إلى السوق. ثم ذهبوا إلى البيت.

في البيت أخبر إبراهيم أباه بمرض عائشة أم سالم. وعجز زوجها الفقير عن تسديد ثمن العملية الجراحية التي نصحها الأطباء بضرورة إجرائها. فلم يكن أمام الأب إلا أن حث سالما على ضرورة التسلح بالصبر، واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع،

ليـرفع عنهـا الضـر. كمـا ألح عليـه بمواصلة قطف الفـاكـهـة من البستان التي تدوم مدتها حوالي أربعة أيام حسب ما قدرها، عندما شـاهدهـا في ذلك المسـاء، مع ضـرورة الإسـراع بـالعـودة إليـهـا بما يجنيه منها من مال، لعله يخفف عن أبيه بعض ذلك المبلغ الطائل.

عـاد الصـديقـان إبراهيم وسـالم، فـي صـبـاح اليـوم الثـانـي باكـرا إلى البـسـتـان، وشـرعـا في عـملهـمـا، يقـطفـان من ثـمـاره، ويحـدثـان بعضـهمـا، ومـا إن لحقتهمـا الهـاجـرة، حتى آويا إلى ظل تلك الشـجـرة للغـداء والراحـة.. وفي الوقـت نفـسـه عـادت إليـهـا أسـراب الطيـور المهـاجـرة التي رأياهـا يوم أمس، وهنـا فكـر الصـديقـان فـيـهـا وفـي علاقتها بالوصية فقال إبراهيم:

أليـست هذه الطيـور، هـي التـي أوصـاك أبوك بإطعـامـهـا؟ فـلا أرى طيورا أخـرى في البسـتان غيـرهـا. فهي مهـاجرة كما ترى. تأتي في بداية الصـيف. وتعـود في منتـصف الخـريف.. وأظن أن الأب، كـان يقـصـد هـذه الطيـور التـي اتخـذت من الشـجـرة وكـرا للراحـة والمبيت.

ولم يكن سـالم في الحـقـيقة يفكـر في تلك الطيـور، ولا فـي تلك الوصيـة، فكل مـا كـان يشـغله هو مـرض أمـه، التي اسـتـعـصـى عليـهـا الشـفـاء منه.. كـان في تلك اللـحظة ينظـر إلـى قـبـر أبيـه لكنه أجـاب عن حديث صديقه بقوله:

– نعم أظن أنه كان يقصد هذه الطيور.

وهنـا اغتنم إبراهيم الفرصة وأضـاف:

– ولم لا نشـرع فـي تطبيق الجـزء الثـانـي من الوصيـة، ونعطيـهـا بعض الطعام؟

فوافقه سالم على ذلك، وصارا يعطيانها كل يوم مقدارا من الحبوب - يجلبانه معهما من الحقول -يشتتانه في ظل تلك الشجرة، ثم يبتعدان عنها، ويتركان تلك الطيور تهبط إليه لتنقره. كما كانا يملآن بعض الأواني الصغيرة بالماء، ويضعانها هناك لتتقع منها.

كان الصديقان، يراقبان عن قرب تلك الطيور، وهي تنقر ذلك الحب في حذر، وتتقافز هنا وهناك.. ويمتعان نظرهما خلال فترة راحتهما القصيرة - وهما تحت ظل جدار الكوخ -بجمال شكلها، ونقاء ريشها الأبيض.

لاحظ إبراهيم -في تلك الظهيرة الحارة - أن كل الطيور التي كانت متشبثة بالأغصان قد هبطت. لتنقر القمح المشتت على الأرض، إلا واحدا منها ظل جاثما فوق غصنه ولم يبرحه. فلم يهتم إبراهيم لهذه الملاحظة. وظن أن ذلك الطائر لا يريد مشاركة السرب في تلك الوليمة المفاجئة، ولكنه سيهبط معهم في اليوم الثاني دون شك، ويتعود على النقر معهم.

وفي اليوم الثاني تكررت لديه الملاحظة نفسها. ورأى الطير نفسه على غصنه. في الوضعية نفسها التي كان يتخذها يوم أمس... فاستغرب ذلك في نفسه كثيرا.. فكل الطيور تهبط إلى الأرض ما إن تراهما قد شتتا لها الحب، إلا ذلك الطير الذي لا يشارك رفاقه، ثم حدّث سالما عنه.

-سالم. أرأيت ذلك الطير الجاثم على الغصن الذي يعلو الكوخ؟ وهو يشير إليه بأصبعه.

-نعم إني أراه. ما به؟

إبراهيم: إنه يعزل نفسه عن السرب، فلا اليوم شاركه الطعام.

ولا أمس. ومازال على وضعه لا يتحرك.

-سالم: لعله مريض.

- إبراهيم:سأصعد إليه لأعرف سبب بقائه وحيدا هناك، فيما بعد.

وانتظر إبراهيم حتى أنهت الطيور تلك الحبوب القليلة. بمناقيرها السريعة، وانصرفت إلى الأغصان، وشرع يتسلق تلك الشجرة الباسقة. وما إن وصل في تشبثه إلى منتصف جذعها، حتى فزعت تلك الطيور، وصفقت أجنحتها دفعة واحدة، وطارت إلى أعلى مرعوبة. وانتشرت طائرة في دائرة كبيرة فوق الشجرة، وشرعت تحلق في شكل فوضوي، واتخذ كل طائر منها وجهة غير التي اتخذها الآخر.

كان إبراهيم قد تجاوز الجذع في تسلقه، وبدأ يسير فوق ذلك الغصن الخشن. ويحرك عليه رجليه ببطء و يمسك بيديه في غصن آخر فوق رأسه، وهو متعجب من ذلك الطائر الذي لم يغادر مكانه، ولم يفزع مثلما فزع رفاقه.. وظل جاثما هناك فوق ذلك الغصن الذي يمتد أفقيا فوق الكوخ مباشرة، ويعلوه بعدة أمتار. ظل إبراهيم يتقدم بحذر، ولا يحرك إحدى قدميه حتى يثبت الأخرى، على ذلك الغصن الذي كان يهتز كثيرا على وقعهما.. ورغم ذلك لم ينزعج ذلك الطائر من الخطر الذي كان محدقا به، ولم يهرع إلى النجاة بجناحيه.. اقترب منه إبراهيم كثيرا لكنه بقي في مكانه هادئا. ولم يكلف نفسه عناء الحركة ولو قليلا. كان إبراهيم قد تملكته الحيرة، وهو يتقدم ببطء تجاهه.. وقد أخذ الغصن يهبط إلى أسفل تحت وطأة ثقله. حتى اقترب من سقف الكوخ. وما إن

وصل إبراهيم إليه حتى صاح على صديقه سالم متعجبا:

-إنه ليس طائرا. إنه مجسم من الجبس على شكل الطيور التي تحط على هذه الشجرة وقت الظهيرة، هناك فنان ما هو الذي صنع هذا المجسم. ثم رفعه بيده إلى أعلى ليريه لصديقه سالم، الذي كان على الأرض، يحثه على التثبت حتى لا تزل قدمه، ويسقط لكن في غمرة ذلك الحوار المليء بالدهشة، فقد إبراهيم توازنه. ومال عن الغصن كثيرا ولم يكن أمامه سوى أن أطلق ذلك المجسم يسقط من يده، على سقف الكوخ، وأسرع إلى التشبث بالغصن. وأنقذ نفسه من السقوط، وحين نظر بعينيه إلى أسفل، ظهرت له أجزاء مبعثرة من مجسم ذلك الطائر الجميل، فوق سقف الكوخ. وبانت له جهاته الأربع كلها - في مرة واحدة-لقد كان موقع ذلك المجسم، فوق منتصف الكوخ تماما، وحين يقف الشخص في مكانه على الغصن، تظهر الجهات الأربع للكوخ.

صعد سالم فوق سقف الكوخ. فوجد أجزاء ذلك المجسم متناثرة هنا وهناك. كان قد بدأ في جمعها حين كان إبراهيم يهبط من الشجرة وهو يقول له:

- لقد رأيت الكوخ من جهاته الأربع، عندما كنت فوق الغصن، في المكان الذي وضع فيه هذا المجسم.

وما إن وصل إلى الأرض، حتى كان سالم قد جمع كل تلك الأجزاء التي تناثرت، بعدما تكسرت. وانفصلت عن الكتلة التي كانت داخلها من الورق المقوى. أمسك إبراهيم تلك الكتلة. وبدأ يفتحها برفق.. وهنا لمعت تحت أشعة الهاجرة أول قطعة ذهبية، من ذلك الكنز الذي لم يكونا يبحثان عنه. ولم يكن أمامهما هدف آخر

سوى إطعام الطيور ومساعدة ذلك الطائر، الذي لم يهبط ليشارك غيره في تلك الوليمة، التي كانا يقيمانها كل يوم لها. وصاح الصديقان فرحين:

- لقد وجدنا الكنز.. وجدنا الكنز

سلم إبراهيم لسالم تلك الكتلة الورقية. وقال له:

- ها هو كنزك الذي تركه لك أبوك، فتسلمه الآن.، وُعدّ قطعه الذهبية.

فتسلمه سالم منه، وعينه لا تصدق أنه قد حصل عليه فعلا. واتكأ على جذع تلك الشجرة قبالة قبر أبيه، وفتح الورق المقوى. وأخذ تلك القطع الذهبية في يده وعدها، فوجدها ثلاثين. ثلاثين دينارا ذهبيا.

عانق سالم إبراهيم من شدة فرحه. وراح يشكره على المجهود الذي بذله طيلة شهور عديدة. حتى استطاع العثور على ذلك الكنز، الذي لم يقم هو نفسه بالبحث عنه، لكن إبراهيم الذي كان فرحا هو الآخر قال له:

- علينا أن نذهب الآن بسرعة. ولا تهتم بأمر الفاكهة، التي سأواصل قطفها فيما بعد. أما الآن فيجب أن نعود إلى البيت. حتى تأخذ هذه الدنانير الذهبية إلى أبيك وأمك. وتستطيع أن تجري بها العملية الجراحية، قبل فوات الأوان.. ستسافر إليها هذا المساء أو غدا في الصباح الباكر.. أما انأ فسأعود أعمل في البستان حتى أنهي قطف ما بقي من الثمار حتى يبيعها أبي لك. وأحتفظ لك بنقودها حتى تعود.

فأعاد سالم تلك القطع الذهبية إلى غلافها من الورق المقوى،

وخرج الصديقان يحملان معهما ما قطفاه في نصف ذاك اليوم. ويخبئان كنزهما الغالي، وقصدا المنزل مسرعين.

لم يوافق الأب على سفر سالم إلى عائلته في ذاك المساء، فالمسافة بعيدة، والوقت قد تأخر، ونصحه بأن يبقى معهم تلك الليلة. وفي الصباح الباكر سيسافر ثلاثتهم مع بعض. سالم رفقة الأب وابنه إبراهيم.

لقد رأى إبراهيم أن ذلك الحزن الذي كان يخيم على صديقه سالم قد زال، وحلّت البشاشة محله، وهما يتحدثان عن تلك الوصية، وذلك الكنز الذي عثرا عليه دون أن يقصدا البحث عنه. لقد فكرا فيه من قبل. ولم يكن توقعهما لمكانه في محله. بل كان في ثنايا تلك الوصية، التي فكر الأب خالد، بذكاء كبير قبل كتابتها على الجدار، وجعل عناصرها متسلسلة، يؤدي كل منها إلى العنصر الذي يليه، فرعاية الأشجار ستؤدي إلى ثمارها، ونضج فاكهتها، وقطف هذه الفاكهة في فصل الصيف سيؤدي إلى مشاهدة وملاقاة تلك الطيور التي تأتي مهاجرة في فصل الحر. وإطعامها سيؤدي إلى اكتشاف ذلك المجسم المعلّق على ذلك الغصن سنين طويلة. ينتظر أن يأتي سالم إليه. ويستعيد كنزه من داخله. وهو يحرس (أي ينظر إلى) الكوخ من جهاته الأربع.

لكم أعجب الصديقان بذلك الأب خالد الذي لم تمنعه ظروفه الصعبة، من تعلم القراءة والكتابة، والمداومة على القرآن الكريم حتى أتم حفظه.

في الصباح الباكر خرج الأب مع الصديقين وسافروا إلى العاصمة. كان سالم يخبئ في جيبه ذلك الكنز مع ما استطاع

جمعه من بيع فاكهة بستانه. وما إن وصلوا حتى وجدوا مختارا الصياد في بيته، يحاول مساعدة زوجته عائشة التي أعجزها مريضة. ووجدها سالم قد ازدادت ضعفا، فهرع إليها. وما إن سلم عليها، حتى حدثها عن اكتشافهما لذلك الكنز، هو وصديقه إبراهيم. وأخرجه لها من جيبه، ثم عرفها وعرف أباه مختارا بهما:

- هذا صديقي إبراهيم، وهذا أبوه محمد

وهنا نطقت الأم بصوت خافت وهي ترحب بهما. وتحاول أن تبتسم وقالت:

- أما عمي محمد فإني أعرفه جيدا منذ كنت صغيرة في العاشرة من عمري. وما زلت أذكر تلك الأيام التي جاءنا فيها جريحا وقضاها معنا، وكان أبي رحمه الله يسعفه.

وهنا قال سالم لأبيه: سنحملها الآن إلى المستشفى مادام لدينا المبلغ الكافي لإجراء تلك العملية.

لكن عائشة قبل أن تغادر بيتها أمرت سالما أن يذهب إلى الخزانة ويفتحها ويأتيها من داخلها برزمة ملفوفة برداء، في طابقها العلوي. ظن الجميع أنها بعض الأدوية، وما يلحقها من صور للأشعة والوصفات الطبية.. فأتاها سالم بتلك الرزمة، وطلبت منه أن يفتحها، وما إن أزاح عنها الغطاء حتى ظهر من داخلها (كتب الشهداء) الذي كان محمد يبحث عنه منذ سنين طويلة، تناولت عائشة بيدها النحيلة، ذلك السجل وناولته لمحمد. وقالت له:

هذه أمانة تركها عندي أبي المرحوم، وأوصاني بألا أسلمها إلا لأحد الذين جرحوا وآووا إلى كوخه بغية الشفاء. وإني أحمد الله على حضورك في الوقت المناسب، كي أكون قد أديت الأمانة التي

كلفت بالحفاظ عليها، وسلمتها إلى أهلها. فإني مريضة – ولعلي سأموت– ولن يعرف أحد بوجود هذه السجل.

فرح محمد كثيرا بذلك الدفتر. وأمسكه بيده. وقد أحس في تلك اللحظة، بأنه هو أيضا قد عثر على كنزه، الذي طال بحثه عنه.. وشكرها كثيرا على ذلك. ودعا لها بالشفاء وافترقوا بعد ذلك على أمليهما المختلفين. فكان أمل عائلة سالم هو شفاء أمه عائشة. وكان أمل عائلة إبراهيم هو العثور على أي خبر يدل على وجود عمه علي في ذلك السجل.

عاد الأب مع ابنه إبراهيم، وما إن دخلا إلى البيت. حتى فتحا ذلك الدفتر الذي وجداه مليئا بالأحداث والأسماء بخط ضيق ورقيق، ولم يكن صعبا على إبراهيم الذي بدأ في قراءته على الأب أن يعثر على قصة أبيه على الصفحة الأولى منه، فكان يقرأ له ما كان هو نفسه قد أملاه على ذلك الشيخ، الذي كان بدوره يكتبه. فوجده صحيحا تماما لم ينقص منه ذلك الشيخ ولو عبارة واحدة. كما لم يضف إليه أية كلمة من عنده.

لكن إبراهيم لم يستطع العثور على قصة عمه في ذلك السجل الكبير الذي كادت صفحاته تملأ بالكتابة حتى آخرها، ولم تبق منها إلا أوراق قليلة في نهايته. كانت فارغة، وما صعب عملية البحث عنهما، هو أن الشيخ لم يكن يضع عناوين لتلك القصص والأحداث التي كان يرويها له الجرحى. وهكذا استمر إبراهيم في قراءه كل ما كتب على ذلك السجل الكبير، وكان الأب خلال ذلك يستوقفه في بعض الأحيان. ليقول له بأنه يعرف صاحب هذا الاسم، الذي كان إبراهيم يقرأ قصته وأنه كان يعلم هذا من قبل دون أن ينسى

الترحم على ذلك الشيخ الصادق الذي كان يسجل الحقائق كما هي دون تغيير أو تزييف.

تطلب الأمر منهما عدة أيام. حتى تجاوزا ثلثي الصفحات. حين عثر إبراهيم وهو يقرأ على أبيه في الليل، على قصة عمه (علي). التي كانت مقتضبة وقصيرة جدا (لقد أصيب في رأسه. بعدما انفجر به لغم داس عليه، وبقي في الكوخ ثلاثة أيام وهو في غيبوبة، ثم نقل إلى مستشفى قسنطينة (إحدى ولايات الشرق الجزائري) وتنتهي القصة عند هذا الحد، ولا يضيف الشيخ إليها شيئا آخر، سوى أسماء الرجال الأربعة الذين جاؤوا لحمله في تلك الليلة ومعهما حصانان. وتأكد الأب من اسم الرجل الذي حكى له هذه الحادثة من قبل وهو صديقه عثمان، ووجد الشيخ قد سجل اسمه مع هؤلاء الرجال الأربعة.

عزم الأب في ذلك الليل على أن يسافر في الصباح الباكر إلى مدينة قسنطينة. فخرج وعرض على صديقه عثمان الذي كان يسكن قريبا منه مرافقته في سفره ذاك. وكان عثمان هذا مجاهدا سابقا. وكان مع (علي) حين انفجر عليه اللغم. وهو الذي نقله وهو في غيبوبة رفقة ثلاثة آخرين من المجاهدين. وسافروا به طيلة ثلاث ليال حتى التقتهم مجموعة أخرى من المجاهدين وقت الفجر، وأخذوه عنهم إلى المستشفى وتركوهم يعودون، فوافق عثمان على السفر بعدما حدثه محمد عن ذلك السجل الذي عثر عليه عند عائشة بنت ذلك الشيخ. ثم دخل الأب إلى البيت وأوصى إبراهيم، قبل أن ينام بضرورة بقائه في البيت، ليسهر على شؤون أمه وإخوته. وأخبره بأنه قد يتغيب عدة أيام عنهم ليتحرى عن عمه..

ونصحه بألا يذهب إلى الكوخ أو البستان. ويمكث هناك.

ذهب الأب وبقي إبراهيم في المنزل، كان خلال ذلك الوقت يقضي ساعات طويلة من نهاره، يقرأ صفحات عديدة من كتاب الشهداء، واهتدى أثناء ذلك، إلى فكرة رآها مفيدة في تنظيم معلوماته، لمن يريد البحث فيه عن أي شخص، أو يريد معرفة أية حادثة.

فذهب واشترى سجلا جديدا يطابقه في الحجم، وبدأ ينسخ كل تلك المعلومات التي وجدها مدونة فيه على ذلك السجل الجديد الذي وضع أرقما لصفحاته ابتداء من واحد، ووضع عناوين لكل القصص والحوادث التي نقلها على السجل الجديد. وفي الصفحات الأخيرة وضع له فهرسا عليه عنوان القصة والصفحة الموجودة عليها، وهكذا صار البحث في ذلك السجل الجديد يسيراً على أي شخص. يريد الاطلاع عليه، وقراءة تفاصيل أية حادثة من الحوادث التي وقعت خلال ثورة التحرير في تلك المنطقة.

وصل محمد مع عثمان إلى مدينة قسنطينة. التي لم يكونا يعرفانها من قبل، وشرعا يبحثان عن علي وسط جموع كبيرة من الناس لم يكونا يعرفان منهم أي أحد. ثم دخلا إلى أحد المقاهي ليستريحا قليلا من عناء سيرهما، فجلسا على كرسيين متقابلين وكان محمد يتجه - في جلوسه - بوجهه إلى باب المقهى الكبير. وطلبا من النادل قهوة وماءً.. وهنا دخل رجل، وقصد المشرب، وأثناء ذلك رفع يده باتجاه محمد، دون أن يركز في وجهه، وألقى عليه التحية:

- السلام عليكم. كيف حالك يا عبد الوهاب.

لم يرد عليه أحد تحيته، من الأفراد القلائل. الذين كانوا

يجلسون مثنى وفرادى. لقد سمع محمد تحية ذلك الرجل الذي قال له: كيف حالك يا عبد الوهاب. وانتظر أن يبادر عبد الوهاب إلى الرد عليه، لكنه لم يسمع أحدهم يرد عليه، وتعجب ذلك الرجل الذي يعرف عبد الوهاب جيدا بطيبته، لكنه لم يرد عليه تحيته. وهنا التفت إليه وركز في وجهه، واكتشف أنه مخطئ، فليس هو عبد الوهاب، بل هو رجل آخر يشبهه إلى درجة كبيرة، لكنه لا يعرفه. وهنا قدم إليه ذاك الرجل وقال له:

– أرجو منك المعذرة يا سيدي. لقد أخطأت، وظننتك شخصا أعرفه –يدعى عبد الوهاب–.

فرد عليه محمد: لا داعي للاعتذار، فأنت لم تفعل أي أمر سيّء يوجب هذا الاعتذار، ولم تقل لي سوى كيف حالك. فتفضل بالجلوس، وتناول القهوة معنا.

جلس الرجل معهما. ثم قال:

– أراكما متعبين جدا، فهل أتيتما مسافرين من مكان بعيد؟

فأجابه عثمان: نعم جئنا من مكان بعيد، نبحث عن شخص ضائع منذ أيام الثورة.

فقال له الرجل: تقول أنكما جئتما تبحثان عن شخص ضائع منذ أيام الثورة؟

فقال له محمد: نعم

الرجل: ومن أية منطقة هو؟

محمد: هو من ولاية (المدية). –في الوسط الجزائري – إنه أخي. انفجر به لغم فحملوه إلى المستشفى هنا. ولم يعد إلينا بعد ذلك.

الرجل: وما اسم أخيك هذا؟

محمد: اسمه علي

الرجل كأنه يحدث نفسه: لا.. يبدو أني مخطئ، فأنا أعرف رجلا يشبهك كثيرا اسمه عبد الوهاب، حتى ظننتك منذ قليل هو حين دخلت إلى المقهى، وسألتك: كيف حالك يا عبد الوهاب. والحقيقة أنك تشبه هذا الرجل عبد الوهاب الذي أعرفه جيدا يا سبحان الله الذي يخلق من الشبه ما يشاء، ولولا بعض السمات الطفيفة التي تختلف بها عنه لقلت أنك هو.

سأله محمد: وهل عبد الوهاب هذا الذي يشبهني كثيرا، يسكن هنا بقسنطينة. ويعيش بينكم.؟

قال الرجل: نعم إنه يسكن هنا. ونعرفه حق المعرفة.

قال محمد: وهل هو من قسنطينة في الأصل. أم جاءها متنقلا من مدينة أخرى؟

قال الرجل: الله أعلم بذلك، قسنطينة مدينة كبيرة، وصرنا لا نعرف سكانها الأصليين من الوافدين عليها بعد الاستقلال.

ثم دفع محمد الحساب إلى النادل وخرجوا. وعند الباب شجعهما على البحث عن عليّ وضرب لهما موعدا للقاء في مساء ذلك اليوم، ثم ذهب وتركهما.

بقي محمد مع صديقه عثمان يتجولان ببطء في شوارع قسنطينة الفسيحة، ويعبران جسورها المعلقة الشاهقة. وهما يركزان نظرهما على المارة لعلهما يصادفان بينهم وجه علي الذي طال غيابه.

تجاذبا أطراف الحديث مع رجل آخر التقيا به أثناء خروجهما

من صلاة الظهر بأحد المساجد، وسأله عثمان إن كان يعرف رجلا اسمه علي وأشار إلى محمد، وهو يقول له إنه يشبه أخاه هذا. وهنا قال له ذلك الرجل:

– أعرف شخصا يشبهه، لكنني لا أعرف اسمه، فكثيرا ما أراه يسير في الشارع ذاهبا أو قادما، وفي عديد المرات كان يحضر معنا لتأدية الصلوات في المسجد، ولكني لا أعرف اسمه كما لا أعرف مقرّ سكنه.

وسأل محمد الكثير من الناس، إن كانوا يعرفون أخاه. وبعضهم كان يجيبه بأنه لا يعرفه، وقلة منهم كانت تردد ما قاله له الرجل، إنهم يعرفون شخصا يشبهه، لكنهم أكدوا له جميعا على أنه كان هناك مستشفى كبير. يأتون إليه بالجرحى من المجاهدين للعلاج فيه. وكان هذا المستشفى يقع تحت الأرض في أحد الجبال. وأكدوا له بأن الكثير الكثير من الجرحى، قد جيء بهم إليه أثناء ثورة التحرير. من كل مناطق الوطن، وبعضهم قد شفي وعاد من حيث أتى، وبعضهم قد توفاه الله ودفن هنا.

في المساء عاد محمد مع عثمان، إلى المقهى الذي التقيا فيه بذاك الرجل. الذي قال لهما بأنه يعرف شخصا، يشبه محمدا، واسمه عبد الوهاب، وبقيا ينتظرانه هناك.. ولم يمر الكثير من الوقت. حتى جاءهما ذلك الرجل الذي كان اسمه (سعيد). فسلم عليهما ثم قال لهما:

– إنكما قادمان من مكان بعيد، ومتعبان، وليس لديكما شخص تعرفانه في هذه المدينة حتى تذهبا إليه، ولذلك يجب أن تذهبا معي هذه الليلة إلى داري وتنزلان عندي ضيفين. وفي الغد إن شاء

الله سنبحث مع بعض عن عليّ حتى نجده أو نعرف على الأقل أخباره.

فوافقاه على ذلك، وسارا معه إلى البيت، وفي الليل تحدثوا كثيرا، عما وقع للشعب الجزائري أثناء ثورة التحرير، وما عاناه من ويلات الاستعمار، وترحموا على أرواح الشهداء. وقبل أن يناموا قال لهما سعيد:

- غدا إن شاء الله سنذهب لنبحث عن شخص أعرفه كان يعمل في ذلك المستشفى أثناء الثورة، ولعله يفيدنا بأي خبر عن أخيك علي.

في الصباح خرجوا من البيت يقصدون ذلك الرجل، لكن أثناء الطريق، أعاد محمد لسعيد، حديثه عن ذلك الرجل الذي قال عنه أنه يشبهه. وكان اسمه عبد الوهاب وطلب منه أن يدله على سكنه. فلعله هو علي وقد يكون غيّر اسمه إلى عبد الوهاب حتى لاتكتشفه قوات العدو وقت الثورة. وعاش باسمه الجديد بعد ذلك. أو لعله شُفي هنا والتحق بالمجاهدين، في منطقة قسنطينة. ليواصل الكفاح، وأعطوه اسما ثوريا جديدا يتخفى به، ويمكنه من مواصلة الجهاد، دون أن يعرف أحد آخر تاريخه السابق بمنطقة المدية، وما كان على سعيد - ذلك الرجل الطيب- إلا أن وافقه على ذلك. وعرج بهما في طريقهم، على شارع جانبي. وما إن استداروا عند مدخله حتى أشار بيده إلى سكن عبد الوهاب. الذي كان في الطرف الآخر من ذلك الشارع، ثم ساروا نحوه حتى وصلوا إلى بابه، فطرقه سعيد وبقوا ينتظرون، حتى فتحه وخرج منه طفل في العاشرة من عمره كان يعرف سعيدا، فسلم عليه، وسلم على محمد

وعثمان بدورهما. ثم سأله سعيد عن أبيه عبد الوهاب، إن كان موجودا. فأجابه الطفل بأنه غائب. لقد سافر مع خاله، ولن يعود إلى البيت إلا في الغد، حينها قال له سعيد:

غدا إن شاء الله. سنأتي لزيارته. أنا وعثمان هذا. ومحمد ذاك الذي يشبهه، وكان أثناء ذلك يبتسم للطفل، فابتسم الطفل أيضا وقال له:

- صحيح إنه يشبه أبي إلى حد بعيد.

واصلوا طريقهم حتى وصلوا، إلى ذلك الرجل المجاهد، الذي كان يعمل في المستشفى خلال ثورة التحرير، فعرّفه سعيد بهما، وقصّ عليه قصة علي، وطلب منه أن يساعدهما في العثور عليه إن كان حيا أو يعطيهما أي خبر عنه إن كان ميتا. لكن ذلك الرجل الذي كان يشتغل ممرضا في ذلك المستشفى، ويشرف على إسعاف الجرحى قال لهم:

- أما الموت فلا، لأنه طيلة تلك السنوات التي عمل خلالها في المستشفى، لم يمت أي شخص اسمه علي، خاصة وأنهم أعادوا نقل رفاتهم إلى مقبرة الشهداء، وسجلوا أسماءهم على شواهد قبورهم. ولا يوجد من بين كل تلك الأسماء التي أحفظها اسم علي هذا الذي تبحثون عنه أو أي علي آخر.

وهنا تأكد محمد من أن أخاه لم يمت في تلك المدينة، في تلك الفترة على الأقل، وبقي أمامه احتمالان هما: إما أن يكون حيا، أو توفي في مكان آخر.

ثم زاروا مع ذلك الرجل مقبرة الشهداء التي كان قد كتبت على شواهد قبورها أسماؤهم وقرأ عليهم ذلك الرجل تلك الأسماء كلها.

ولم يكن بينهم اسم علي.. ولم يعد ذلك الممرض يتذكر باقي الجرحى الذين قدموا إلى المستشفى، وكتبت لهم النجاة من الموت.

عاد الرجال الأربعة إلى مركز المدينة، وهناك شكر محمد ذلك الرجل على بذله من مجهود لأجلهم، ثم ذهب وتركهم يتجولون في شوارع تلك المدينة الجميلة الآهلة بالناس حتى توجه بهما سعيد إلى أحد الشوارع الجانبية، وهناك التقوا برجل آخر كان يعرفه وقد سبق له أن عمل في ذلك المستشفى.

فعرفه سعيد على محمد وعثمان، ثم لخص له قصة علي (لقد سقط مغمياً عليه بعد أن انفجر به لغم داس عليه برجله. وبقي في غيبوبة طيلة ثلاثة أيام. ثم سافروا به ثلاثة أيام أخرى. واستلمته جماعة أخرى عنهم. وجاءت به إلى المستشفى) وهنا قال له الرجل. بأنه كثيرا ما كان يكلف بنقل الجرحى من مناطق عديدة إلى قسنطينة، لكنه لا يذكر مرة أنه نقل جريحا اسمه علي أبدا، وفي هذه الأثناء تدخل عثمان وقال له:

– هل تذكر بعض كلمات السر التي كنتم تتداولونها. مع من يسلمونكم الجرحى؟

فقال له الرجل:

– لقد نسيت الكثير منها؛ لأنها كانت تتغير مع كل عملية نقوم بها. حتى لا يكتشفها العدو لها، فيتمكن من القبض علينا. كنا نعقد اجتماعا مصغرا، يضم الأفراد القلائل الذين يقومن بعملية النقل. وخلال ذلك الاجتماع، نعرف كلمة السر التي يخبر بها أفراد المجموعة الأخرى، الذين يأتون إلينا بالجريح، ونكون متفقين مسبقا على مكان التسليم، ويقوم بهذه العملية كلها رجال مهمتهم التنسيق

والاتصال بين مجاهدي الولايات كلها.

وهنا نطق عثمان الشطر الأول. من تلك الكلمة:

- (الأمير عبد القادر)

ودون تردد رفع ذلك الرجل أصبعه، وهو يشير إلى سرعة تذكره، لتلك الكلمة، وأضاف شطرها الثاني بقوله:

- (لم يمت)

كانت هذه العبارة هي كلمة السر التي اتفقت عليها المجموعتان اللتان نقلتا علي وهو في غيبوبته إلى المستشفى. لقد تذكر ذلك الرجل تلك الليلة التي كان فيها رفقة أصدقائه تلك المجموعة من المجاهدين الذين لم يروا وجوههم، وسلموهم عليا في حالة إغماء على بطانية، كانوا يحملونه من أطرافها بأيديهم، وهنا سأله محمد عما حدث له.

فقال له الرجل:

- لقد نقلناه في ذلك الصباح. على متن شاحنة كنا قد أعددناها من قبل لهذا الهدف، وأوصلناه إلى المستشفى في ذلك النهار نفسه. لكننا لم نكن نعرف اسمه، ولم يستطع هو أن يحدثنا، لأنه كان في غيبوبة، وتركناه هناك ليعالجه الأطباء، وانصرفنا ولا أعلم ما حدث له بعد ذلك، فقد تم نقلي إلى منطقة أخرى.

وتعرف عثمان على ذلك الرجل الذي التقى به ذات ليل تحت جنح الظلام، ولم تكن بينهما إلا كلمة السر تلك، وبقيا يتحدثان مدة طويلة، مع بعضهما عما لقياه طيلة سبع سنوات من حربهم التي كانوا يخوضونها، مع الشعب الجزائري، ضد الاستعمار.

قضى محمد وصديقه عثمان ليلة ثانية في ضيافة سعيد وفي

الغد ذهب بهما إلى دار عبد الوهاب وحين وصلوا سبقهما سعيد إلى الباب، فطرقه، وبقي واقفا أمامه ينتظر حتى فتحه ذلك الطفل الذي رأوه يوم أمس، وما إن شاهدهم، حتى طلب منهم أن ينتظروا قليلا، ريثما يدخل ليخبر أباه الذي كان داخل المنزل. كانت ضربات قلب محمد تتسارع وهو ينظر إلى الباب، الذي انفتح وخرج منه عبد الوهاب، وكان أقربهم إليه سعيد. فبادره بالقول:

– خير إن شاء الله يا سعيد. لقد قيل لي أنك جئت تبحث عني بالأمس، هل هناك أمر ما قد حدث، وتحتاج إلى مساعدتي؟

صافح عبد الوهاب سعيدا أمام الباب، وبقي معه يحدثه. ولم ينتبه لوجود محمد وعثمان اللذين كانا واقفين على بعد أمتار قليلة. وأثناء حديثهما رفع سعيد يده، وأشار بسبابته إلى محمد، وما إن شاهده عبد الوهاب، حتى صرخ صرخة بأعلى صوته. وهو يخطو خطوته الأولى تجاهه، ثم وضع كف يده على جبهته. وترنح في مكانه، وكاد يسقط على الأرض. لكن سعيدا أمسكه من ذراعه، وساعده على الاعتدال على قدميه، وهنا كان محمد وعثمان قد التحقا بهما، ودام الصمت بين الرجال الأربعة للحظات. كان خلالها محمد وعثمان ينظران إلى عبد الوهاب، وهذا الأخير ينظر بدهشة إلى محمد الذي قال له:

– علي، أنت علي! هل عرفتني؟

– نعم عرفتك أنت محمد أخي!

واحتضنا بعضهما طويلا. كانت الدموع أثناء ذلك. تسيل على خدي محمد الذي عثر على أخيه أخيرا، وعادت ذاكرته المفقودة إليه. بعدما نسي كل شيء دفعة واحدة، حين انفجر به ذلك اللغم،

وأصيب في رأسه، لكنه شفي بعد ذلك من جرحه في ذلك المستشفى الذي نقلوه إليه، وخرج منه فاقدا للذاكرة. وبدأ حياة جديدة باسم جديد، أطلقه عليه بعض الناس الذين رقوا لحاله، وأسموه عبد الوهاب. وبقي بعد الاستقلال بقسنطينة، وتزوج هناك، وأنجب أطفالا، ولم يتذكر حياته الأولى مع أخيه إلا حين شاهده فجأة، وعادت إليه ذاكرته القديمة.. وكان أول ما تذكره حين شاهد أخاه محمدا هو تلك الليلة الأخيرة. التي جمعتهما في منزل والدهما. عندما كانا شابين، واتفقا فيها على الالتحاق بصفوف الثورة، وهنا خطا خطوته تلك نحوه لكن صورة ثانية قفزت إلى ذهنه في تلك اللحظة هي انفجار ذلك اللغم، وكيف قذف بعيدا إلى أعلى، وإطلاقه صرخة مدوية في الغابة. التي أعادها عندما تذكر ذلك الانفجار، وهو يرى أخاه محمدا. ثم تسارعت الصور والأحداث التي كانت غائبة عنه يتذكرها بسرعة وترتيب حتى تأكد محمد من أن ذاكرته قد عادت إليه كلها. بعدما تحدثا في الكثير من الأشياء التي جمعتهما في طفولتهما، وعيشهما مع بعض بعد وفاة والديهما.

ثم شرع يحدثهم عما حدث له، لقد شفي في ذلك المستشفى من جروحه، واستفاق من غيبوبته، لكنه كان فاقدا لذاكرته ولا يعرف حتى اسمه. وانتظر المجاهدون عودة الذاكرة إليه، ولما يئسوا منها سمحوا له بالذهاب حيث يشاء. فقد كانوا يعلمون أنه لا أهل له ليعود إليهم. كما كانوا يعرفون أن أخاه محمدا، كان في صفوف الثورة، ولا يمكنه أن يذهب إليه، وهكذا عاش عليّ مشردا في شوارع قسنطينة لا يعرف أين يتجه ولا ماذا يفعل. حتى لقيه رجل

من أهل الإحسان، وسأله عن اسمه.

فقال علي: لا أعرف.

قال له الرجل متعجبا: لا تعرف اسمك. ومن أيّ مدينة أنت؟

فرد عليه علي بالعبار نفسها التي قالها له في الأول: لا أعرف

قال الرجل: حتى هذا لا تعرفه.

وعرف ذلك الرجل أن عليا فاقد لذاكرته، وعليه أن يساعده حتى لا يبقى مشردا في تلك الشوارع، معرضا للجوع، والظروف القاسية، فأخذه من يده وسار به إلى أحد المحلات ففتح بابه. ودخلا إليه ثم قال له:

– أنت اسمك من الآن عبد الوهاب، وكرر له الاسم مرة ثانية. عبد الوهاب، وطلب منه أن يعيده على سمعه.

فقال علي: اسمي عبد الوهاب.

ثم قال له الرجل:أنا اسمي عبد الملك، وهذا المحل لي. أعمل فيه على نقش الأواني النحاسية الخفيفة، ومن اليوم ستبقى معي هنا، أعلمك النقش عليها، ونبيعها معا، وتعيش معي.

كان عبد الوهاب (علي سابقا) يحدث كثيرا ذلك الرجل الذي يسمى عبد الملك عن تلك الصور التي بقيت راسخة في ذهنه لكنها غامضة، ولا يعرف معناها. من ذلك المستشفى الذي كان فيه، وكأنه ولد هناك. وكانت تلك الصور هي البداية لحياته الجديدة، فكان يصف الأسرّة بغطائها الأبيض المصفوفة على جانب الجدار. والأطباء بحركاتهم الكثيرة والدماء التي كانت تسيل.. والكثير من الجرحى الذين كانوا يعانون من الآلام. إلا أنه لم يكن يعرف، كيف

يسمي كل تلك المشاهد. فكان عبد الملك يساعده كثيرا على استعادة أسماء الأشياء، التي كانت صورها في ذهنه. ويعلمه أسماء جديدة للأشياء الأخرى.. وبدأه بالأواني التي كانا ينقشان عليها الرسوم.. هذا وعاء.. وهذه مزهرية وهذا مرش.. وذاك إبريق.. فكان عبد الوهاب، يسرع إلى حفظها. ويستعملها كثيرا في جمله القصيرة التي كان يحدث بها عبد الملك. وهكذا.. حتى استطاع استرجاع أسماء الأشياء التي نسيها وصار يستطيع الحديث مع عبد الملك أو مع غيره عن أي شيء.

كان عبد الملك - ذاك الرجل الطيب - قد أحضر سريرا، وغطاء. وضعهما لعبد الوهاب، في إحدى زوايا المحل في الخلف. لينام هناك، ويستريح من تعبه اليومي. كما كان يحضر له كل يوم الطعام معه من بيته. وبقيا كذلك مدة سنتين، وبعدها قال له عبد الملك:

قد صار لديك الكثير من النقود الآن، لقد ادخرتها لك على مدار سنتين إذ كنت تحصل على ثلث الدخل الذي كنا نحصل عليه. وثلث لي وثلث ندفع به ثمن ما نشتريه من سلع ومواد أولية، والآن قد صار عندك مبلغ كاف من المال، يمكنك الاعتماد عليه في الزواج، وبناء بيت تستقر فيه، وتنجب أطفالا تربيهم.

لكن عبد الوهاب الذي قضى سنتين كاملتين. في ذاك المحل يعمل نهارا، وينام ليلا ولا يغادره إلا قليلا، لم يكن يعرف الناس جيدا، ولا يمكنه أن يختار الزوجة المناسبة له. وما كان عليه إلا أن كلف عبد الملك - الذي يثق فيه- ليبحث له عن امرأة صالحة. تساعده على أعباء الحياة، فوافق عبد الملك على ذلك، واقترح عليه

الزواج من أخته التي كانت تعيش معه في بيته. فرضي عبد الوهاب بها. ورضيت به. وتم زفافهما وبحث له عبد الملك عن سكن، اكتراه مما كان يدخره من مال، وعاش فيه رفقة زوجته وبقي يعمل في محل صهره عبد الملك، وشريكا فيه. وراجت تجارتهما، وازدهرت بعدما عرفا بين الناس بإتقان العمل والتفاني فيه. ونمت مداخليهما وأرباحهما حتى استطاع عبد الوهاب، أن يشتري سكنا خاصا به. كما استطاع أن يفتح محلا جديدا بجوار محل صهره، عبد الملك. في شارع النحاسين.. وأنجب أطفالا، واستقر مع عائلته في سعادة، وبقيت علاقته طيبة مع عبد الملك الذي أصبح خالا لأولاده.

في ذلك اليوم الذي عرف فيه محمد أخاه عليا. دعاهما هذا الأخير لتناول طعام العشاء في بيته هو وصديقه عثمان. كما دعا صديقه سعيدا وصهره عبد الملك، وعرف زوجته وأولاده على عمهم محمد، وأثناء ذلك عرفوا اسمي جدهما وجدتهما، وقضوا مدة طويلة من ذلك الليل، يتحدثون عن الكثير من الأحداث التي مروا بها.. كما حدثهم محمد عما مر به بالتفصيل، ابتداء من جرحه في تلك المعركة إلى انتقاله إلى الصحراء وبقائه فيها بعد الاستقلال، ثم زواجه هناك، وعودته بعد ذلك إلى منزل والديه. ثم رحلة بحثه عن علي وعثور ابنه إبراهيم على ذلك الكوخ الذي عالجوه داخله وهو فاقد وعيه.. ثم عثوره على كتاب الشهداء، الذي بواسطته استطاع المجيء إلى قسنطينة والبحث في شوارعها حتى عثر عليه بفضل مساعدة صديقه سعيد. الذي استضافهما ليلتين متتابعتين. ثم عرض محمد على أخيه علي، أن يرافقهما في الصباح، ليزور مسقط رأسه. ويلتقي بالكثير من رفاقه الذين طال غيابهم. لكن

علياً اعتذر عن السفر معهما، وأخبرهما بأن لديه بعض الأشغال التي يجب عليه إنهاؤها في تلك الأيام. وبعدها سيصحب معه كل أفراد عائلته. ويأتيهم في زيارة تدوم أياما.

في الصباح خرج محمد وعثمان، من بيت علي. وودعاه وعادا إلى مدينتهما. وكم كانت فرحة محمد كبيرة بعدما عثر على أخيه، الذي كان لا يعرف أين يمكنه أن يبحث عنه وترحم كثيرا على ذلك الشيخ الذكي. الذي استعمل قلمه، لكتابة كل تلك الأحداث التي وقعت له ولغيره في تلك المنطقة أثناء حرب التحرير. فلولا ذلك الشيخ، وكتاب الشهداء الذي كان يسجل على صفحاته كل شيء. لضاع منه أخوه علي إلى الأبد. و لضاعت الكثير من الأخبار الهامة التي أصبح الناس الآن في أشد الحاجة إليها.

وما إن وصل محمد إلى البيت حتى أخبر أبناءه وزوجته نبأ العثور على أخيه عليّ ففرحوا بهذا أيما فرح، وخاصة إبراهيم الذي أحس فعلا، بأنه قد عثر على كنز آخر، وتذكر ذلك اليوم الذي اكتشف فيه، ذلك الكوخ المهجور، المحاط بذلك البستان المهمل، ثم كيف فكر في العمل فيه، والاهتمام به، ثم كيف بدأ يكتب عنه قصته الطويلة، والجميلة ثم كيف تلقى رسالته الأولى من سالم. الذي زاره فيما بعد، وبدآ يعملان في البستان حتى عثرا على ذلك الكنز، الذي أسرع به إلى علاج أمه. وهناك أعطت أمه عائشة كتاب الشهداء لأبيه، الذي استطاع بواسطته العثور على عمه علي، الذي ضاع منهم منذ زمن طويل.

فحمد إبراهيم الله سبحانه وتعالى، على توفيقه في ذلك كله، وطرح على نفسه الكثير من الأسئلة . وتخيّل الكثير من الاحتمالات

التي لو اتبعها ما كان يصل هو، أو غيره إلى تلك النتائج، والنهايات السعيدة. فلو ترك البستان على حاله مثلا. أو أخبر بعض زملائه العابثين بوجود ذلك الكوخ، فدون شك سيتعرض لتخريبهم.. ولو لم يقم هو في البستان على رعاية الأشجار، لما استقبل تلك الرسالة من سالم، الذي شكره فيها على عمله واهتمامه بالكوخ وبالبستان. وما استطاع هو أن يتعرف على سالم. وما استطاع سالم نفسه أن يعثر على كنزه، ليدفع منه ثمن علاج أمه، وما استطاع أبوه أن يعثر على كتاب الشهداء. الذي لقي بواسطته أخاه، فالمقدمات أو الأسباب السليمة، تؤدي دائما إلى نتائج سليمة وسعيدة.. والأسباب السيئة تكون نتائجها وخيمة.

في ذلك الليل حدثه أبوه كثيرا، عن عمه علي، وحياته التي عاشها وما زال يعيشها بقسنطينة. وقارن إبراهيم بينه وبين خالد، ذاك الراعي. الذي كانت حياته تشبهه في الكثير من محطاتها. خاصة بعدما فقد ذاكرته. وبدأ يتعلم أسماء الأشياء من جديد. في سنه الكبيرة. مثلما كان خالد يتعلم كتابة الحروف والكلمات في سن كبيرة هو الآخر. وعطف صديقه عبد الملك عليه، وكيف آواه وشغّله معه. كما عطف ذلك الشيخ على خالد، ومنحه بستانه وكوخه.. ووصل من خلال هذه المقارنة إلى خلاصة، تحدث بها إلى أبيه وهي:

أن الإنسان يبقى دائما يتعلم، وهو في حاجة دائمة إلى فعل الخير الذي لا ينتهي.

ثم تحدثا عن سالم وعائلته، وتمنيا الشفاء العاجل لأمه عائشة.. ولما أراد الأب الذي كان متعبا من سفره، أن يذهب إلى

فراشه. أخبره إبراهيم بأنه ينوي الذهاب غدا، لقطف ما بقي من ثمار على أشجار ذلك البستان، وبيعها. والاحتفاظ بثمنها لسالم حتى يعود. لكن الأب قال له، وهو يهم بالوقوف من مكانه:

- لا يمكنك أن تذهب إليه في الصباح. لأننا سنخرج إلى السوق. وهناك ستساعدني في شراء الخضروات والفواكه، وبعض الأشياء التي نقصت من المؤونة، وحين نأتي بها إلى البيت، يمكنك أن تذهب إلى البستان وتقطف منه الثمار، دون أن تجهد نفسك.

وافق إبراهيم أباه على ذلك. وقبل أن يخرج الأب من غرفة الجلوس، تذكر إبراهيم كتاب الشهداء الذي كان قد بدأ في نسخه. وقد قارب الثلث من نقل معلوماته على سجله الجديد. فأخبر أباه به، وعرضه عليه. وبين له التنظيم الجديد، الذي أدخله عليه كالعناوين الكبيرة، في أعلى الصفحة، وسط السطر والأسماء كلها باللون الأحمر الواضح. وأرقام الصفحات.. والفهرس الذي يسهل البحث عن أي شخص. في نهاية ذلك السجل الكبير فأعجب الأب كثيرا بإنجازه. وشجعه على مواصلة كتابته، بخط واضح وجميل.. وحذره من المساس، أو الكتابة على كتاب الشهداء. الذي يجب أن يبقى كما هو. ولا تضاف إليه كلمة، ولا تنقص منه أخرى.

خرج إبراهيم مع أبيه في ذلك الصباح، إلى السوق، ومكثا فيه حتى الضحى، يتفرجان على السلع المعروضة، ويشتريان منها ما يحتاجانه، وحين عادا إلى البيت، وجدا ضيفا عزيزا قد حضر في غيابهما، وبقي ينتظر عودتهما.. وما إن رآه إبراهيم جالسا في غرفة الاستقبال، حتى طار من الفرح وصاح:

- إنه سالم. مرحبا بك. متى جئت؟

وأسرع إليه يحضنه.

فقال سالم بعدما سلم على محمد:

- وصلت منذ قليل.

فقال له محمد: وكيف تركت أمك هل شفيت؟ كان يجب عليك أن تبقى إلى جانبها لتساعدها. فليس لها من الأولاد إلا أنت.

سالم: بل هي من أرسلتني إليكم. لقد أجرى لها الأطباء تلك العملية بنجاح. وتركتها تتماثل للشفاء السريع، وحالتها تتحسن كل يوم، وقد بعثتني لأنقل سلامها وسلام أبي الحار إلى عائلتكم. خاصة إلى إبراهيم. عما بذله من مجهود في ذلك البستان، حتى عثر على ذلك الكنز، الذي كان سببا في شفائها بإذن الله تعالى.

ثم التفت إلى إبراهيم وواصل حديثه:

- كما أمرتني أمي ألا نقرب تلك الثمار الباقية على الأشجار، ونتركها على أغصانها حتى تأتي مع أبي. في زيارة لكم خلال الأسبوع القادم، وحينها سنذهب جميعا إلى البستان ونشترك في قطف تلك الثمار، ونقيم احتفالا هناك.

ابتهجت عائلة إبراهيم كثير حين سمعت بشفاء عائشة. وأحس إبراهيم بسعادة كبيرة تغمر قلبه، وتملكه الشعور خلال ذلك. بأنه قد قام ببعض الإحسان تجاه تلك المرأة التي لم يكن يعرفها من قبل، وكان السبب في العثور على ذلك الكنز، وأحس بأنه يرد بعض الجميل لذلك الشيخ الجليل، نيابة عن خالد ذلك الطفل الذي رعاه وعلمه، وتصدق عليه بكوخه وبستانه، في آخر حياته، وأحسن إليه بهما. وها هو الإحسان يعود إلى ابنته عائشة، التي شفيت بإذن الله تعالى.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

أخبر إبراهيم صديقه سالما أنه كان ينوي الذهاب إلى البستان، في ذلك الوقت ليقطف منه ما بقي على أشجاره من ثمار. ولكن مادامت أمه لا تريد ذلك الآن، فإنهما لا يقطفان منه ولو ثمرة واحدة، واقترح عليه أن يذهبا هناك، بغية التجوال فيه. فوافق سالم على ذلك، وفي انتظار أن تأتي لهما الأم بطعام الغداء. تذكر إبراهيم ذلك السجل الذي كان قد بدأ في كتابته. وأخرجه من بين كتبه. وعرضه على سالم. الذي أعجب به. ثم اقترح على إبراهيم أن يصحبا معهما كتاب الشهداء. وذلك السجل، ويواصل كتابته داخل الكوخ، وهو يملي عليه. فوافق إبراهيم على اقتراح سالم بسرور. وما إن تغديا حتى خرجا من المنزل يقصدان البستان.

في طريقهما شاهدا الحقول الفسيحة، التي قارب حصادها على الانتهاء، وقد حمل أهلها ما جنوه من حبوب وسنابل إلى ديارهم. وتركوا ما عليها من قصب، تأكله الأغنام التي كانت قبل ذلك ترعى داخل الغابة، وتذكر سالم أباه الذي كان يرعى قطيع ذلك الرجل وهو في مثل سنّه- على تلك السهول. ويدخل بها إلى الغابة نفسها التي تصادق فيها مع ذلك الشيخ حتى وفاته. ثم زواجه ومسكنه داخل ذلك الكوخ حتى وفاته هو الآخر. ثم ذهابه وهو صغير مع مختار الصياد، ثم عودته من جديد إلى ذلك الكوخ. وظل يتبع سيل هذه الذكريات وتلك الأفكار، حتى قطعها عليه إبراهيم بقوله:

يجب ألا ننسى أن نأخذ معنا، بعض الحبوب لتلك الطيور المهاجرة.

وعرجا على حقل كان حصاده لم يتم بعد، وأخذوا من طرفه

بعض السنابل في أيديهما وذهبا.. فنثرا حبها على الأرض. وما إن رأته الطيور، التي كانت قد اتخذت أماكنها فوق الأغصان، حتى هبطت إليه، وشرعت تنقره. ثم قرءا الفاتحة على قبر خالد، وتوقفا أمام باب الكوخ أين تركا تلك الأجزاء المكسرة، من ذلك المجسم. وبقيا يحاولان إعادة تركيبها على بعضها البعض. لكن معظمها كان قد تهشم كثيرا. حتى تفتت.. ولم يستطيعا إعادة بناء ذلك المجسم الجميل، وترميمه.. وبقيا مدة يحاولان معرفة الطريقة التي استطاع بها الأب خالد، صناعته بذلك الشكل الدقيق، ثم دخلا إلى الكوخ، وجلس إبراهيم على الكرسي، وفتح السجل أمامه على الطاولة، لكنه حين شاهد الوصية على الجدار تذكر قصته. التي كتبها في المدرسة، وتعرض فيها لكل شيء في ذلك الكوخ، دون أن يهمل الرسائل التي كان يتلقاها من سالم، وحدثه عن النهاية التي وضعها لها، واعتبر فيها الأشجار مخبأ لكنوزها من الفواكه والثمار.. ثم بدأ سالم يملي عليه، وهو يكتب بعناية وبطء.. لكن الحرارة كانت كبيرة داخل الكوخ، الذي لم تكن به نوافذ. فخرجا منه وهما يحملان الطاولة والكرسي، فوضعاهما تحت ظل الشجرة. وجلس سالم على حجر وواصلا كتابة تاريخ ذلك الكوخ، وصاحبه الشيخ الأمين. الذي استطاع أن يساعد عددا كبيرا من الجرحى. كما استطاع أن يترك ذلك الكتاب القيم، الذي يشهد على شجاعتهم وتفانيهم.

ويقي الصديقان سالم وإبراهيم مدة أسبوع. ليس لديهما ما يشغلهما سوى الذهاب إلى ذلك الكوخ صباحا، والمكوث بالقرب منه يوما كاملا. يكتبان على ذلك السجل ما استطاعا نقله من

معلومات. فإن تعبا استراحا وتحدثا، عن بعض الأشياء التي تهمهما دون أن ينسيا إطعام الطيور وسقيها.

وواصلا تلك الكتابة حتى انتهيا منها. ونقلا كل المعلومات الموجودة على كتاب الشهداء دون زيادة أو نقصان.. ثم سلمه إبراهيم إلى أبيه. الذي دعا مجموعة من المجاهدين وعرضه عليهم، كما عرض عليهم كتاب الشهداء الأصلي. واستعاره منه من كان يعرف القراءة، وذهب به إلى بيته. وهناك انكب على مطالعته حتى نهايته. والكثير منهم ممن كان قد جرح، وأسعف داخل ذلك الكوخ، أو ذهب إليه لأجل أمر آخر كلهم قد وجدوا أسماءهم مسجلة بتواريخ زياراتهم له.

ذات مساء عاد إبراهيم، رفقة سالم من الكوخ إلى البيت، وما أن دخلا إليه حتى وجد عمه عليا قد جاء مع أسرته لزيارتهم. فناداه أبوه من الباب، أن يسرع لمشاهدته، ومعرفته، ولا يكاد يصدق عينيه، بملامحه وصفاته التي يشبه فيها أباه كثيرا، وكأنهما توأمان.

كان الفرح عارما وكبيرا بعودة العم، الذي ظل غائبا لسنين طويلة. كما كان عليّ نفسه فرحا بعودته إلى أهله، والمنزل الذي عاش فيه طفولته. والسنوات الأولى من شبابه وكم أبدى ذلك العم إعجابه، بإبراهيم، ونباهته التي كانت سببا، في اكتشاف كتاب الشهداء الذي أدى بدوره إلى العثور عليه، في مدينة قسنطينة. كما تعرف على سالم الذي حافظت أمه على ذلك الكتاب. وسلمته إلى محمد. وتحلق أفراد الأسرتين معا، حول محمد وعلي، وبقوا يستمعون إليهما وهما يتحدثان عن طفولتهما البعيدة التي مرا بها،

في أرجاء ذلك المنزل رفقة أبويهما. ثم ما عاشاه من يتم، وحرمان. بعدما فقداهما، وقد ساد ذلك الحديث الكثير من الضحك من تلك القصص التي كانا يتذكرانها، ويعيدان حكايتها على صغارهما وزوجتيهما.. هنا لعبنا معا.. وهناك تخاصمنا.. وهنالك ضربتنا أمي برفق رحمها الله...

وتسامع الجيران، والكثير من الذين كانوا يعرفون عليا في صباه، فسارعوا في مجيئهم إلى بيت محمد، لملاقاته والترحيب بعودته. حتى اكتظ ذلك المنزل الصغير بزواره وصار ما يشبه العرس عند تلك العائلة الطيبة البسيطة. وكان هذا يسأله عن حياته هناك في قسنطينة.. وذاك يستعيد معه ذكريات الصبا السعيدة...

وبعد أيام لحقتهما عائلة سالم. فجاء مختار مع زوجته عائشة، التي شفيت واستعادت صحتها. وما إن دخلت إلى البيت، وتم الترحيب بها.. حتى راحت تتحدث عن ذلك اليوم الذي نقل فيه عليّ جريحا إلى الكوخ، وقد كانت في البداية تظنه محمدا بسبب التشابه الكبير بينهما. قالت عائشة:

قلت لأبي: لقد جرح عمي محمد من جديد، بعدما شفي من جراحه الأولى. ولكن هذه المرة هو فاقد لوعيه. وجرحه خطير، هو مصاب في رأسه. على خلاف المرة الأولى التي كانت إصابته في الكتف، وفي الرجل، لكن أبي رحمه الله. قال لي:

- إنه ليس محمد، بل هو علي أخوه، ويشبهه.

وبقي عندنا ثلاثة أيام. أحسسنا في اليوم الثاني منها. بحركة غير عادية لجنود الاستعمار الذين كانوا يمشطون المنطقة، ويبحثون

عن المجاهدين. فنقلته مع أبي، وأنزلناه إلى السرداب. ثم أغلقنا الباب. وكنا نتناوب على حراسته. وننتظر استيقاظه، فكنت أبقى بجانبه، فترات طويلة من النهار. وفي الليل كان أبي يحرسه. لقد كان في غيبوبة تامة، وقد زاره طبيب، رفقة مجاهدين اثنين، في الليلة الأولى. وفحصه، ثم وخزه بحقنتين لإيقاظه، لكن دون جدوى.. بعدها رفع الطبيب حقيبته، وقال لأبي إن حالته خطيرة ثم خرج.

في الليلة الثالثة جاءنا أربعة رجال مسلحين، يقودون معهم حصانين، طلب منهم أبي أسماءهم، وسجلها على ورقة، وضعها على جانب، ثم حمله الرجال الأربعة ممددا في بطانية، أعطاها لهم أبي. وذهبوا به في الظلام، بعدها سمعت أبي -رحمه الله- يدعو له الله بالشفاء والحفظ، والعودة ليلتقي بأخيه، ثم التفت إلي وقال لي:

- إنهما يتيمان وليس لهما قريب.

ثم أخذ تلك الورقة، وكتب عليها ما حدث لعمي علي. ووضعها داخل غلاف المصحف الشريف، وأعاده إلى مكانه.

لقد علمني أبي -رحمه الله- القراءة والكتابة. وكثيرا ما كنت أفتح ذلك المصحف، وأحفظ منه بعض الآيات، والسور القصيرة. ولما كبرت، أمسكت ذلك المصحف ذات يوم وتذكرت تلك الأوراق التي كان يضعها داخل غلافه. كلما كتب عن أية حادثة وقعت لمجاهد، وجاء إليه ليسعفه داخل الكوخ، وأردت فتح ذلك الغلاف. وإخراج تلك الأوراق التي كنت أظنها كثيرة. لكنني حين فتحته لم أجد داخله، سوى ثلاث أو أربع أوراق بيضاء، لا كتابة عليها.

فتحيرت من ذلك. وقد كنت أشاهد أبي، في الكثير من المرات يضع تلك الأوراق المكتوبة هناك.. كنت يومها وحدي أنتظر عودته من المدينة، وما إن جاء حتى سألته عن تلك الأوراق، التي لم أجدها. فتبسم - رحمه الله -وقال لي:

- لم أكن أترك تلك الأوراق داخل الغلاف. بل كنت أنزعها من مكانها، حين أراك نائمة، أو حين أكون وحدي، ثم أعيد نقل معلوماتها على سجل خاص لم تريه من قبل، وحين أتم النقل أمزق تلك الأوراق أو أتلفها، وكنت أفعل ذلك أمامك، وحتى أمام الجرحى الذين كانوا يروون لي قصص معاركهم، حتى تظنين أنت، ويظنون هم أن تلك الوثائق موجدة داخل الغلاف، لأني كنت أخشى أن يكتشفها العدو، ويعرف من خلالك وأنت صغيرة وجود تلك الأوراق، ويأخذها ويعرف منها الكثير من الأسرار. لذلك كنت أمزقها بعد أن أسجّل معلوماتها. على سجل كبير سميته كتاب الشهداء، لم يكن يعلم بوجوده إلا فئة قليلة من الناس.

ثم أخرج لي ذلك السجل وفتحته، وقرأت منه بعض الصفحات، لكنني لم أفهم كل ما كتب عليها، وبعد زواجي بمدة طويلة، زرته ذات مرة في مرضه الأخير الذي توفي فيه -رحمه الله- أعطاني خلالها كتاب الشهداء. وأوصاني بأن أحافظ عليه. وأن أسلمه إلى أحد الجرحى الذين عالجهم داخل الكوخ. وألا أسلمه إلى أي شخص آخر مهما كان الأمر. وهكذا بقي عندي ذلك الدفتر، ملفوفا برداء داخل الخزانة. وكنت متحيرة منه كثيرا عندما مرضت.. وكم كانت خشيتي كبيرة من الموت، دون أن أكون قد أديت الأمانة، إلى أهلها. كان مرضي يزداد يوما بعد يوم، والأمانة داخل

الخزانة، تنتظر من يأتي من أهلها حتى يتسلمها. وكان قلقي عليها يتزايد باستمرار.. حتى زارني عمي محمد ذلك اليوم، الذي فرحت به فرحتين؛ أولاهما أني أديت الأمانة إلى أهلها، على وجهها الصحيح، وسلمته كتاب الشهداء، وهو أول الجرحى الذين دخلوا إلى الكوخ وأسعفهم أبي. وفرحتي الثانية كانت بتلك الدراهم، التي جاءني بها سالم، وكان يسميها (الكنز). والتي استطعت بها دفع ثمن العملية الجراحية التي أجريت لي.

وما إن أنهت عائشة حكايتها، حتى ازداد احترام عليّ لذلك الشيخ، الذي سهر عليه وهو فاقد لوعيه، وتمنى لو عادت إليه ذاكرته من قبل، وعاد إلى المدينة، وزار ذلك الشيخ في حياته. لعله بذلك يرد له بعض الجميل، ثم عبر لأخيه محمد عن أمنيته، في زيارة ذلك الكوخ الذي بقي فيه مدة ثلاثة أيام، دون أن يتذكر منها شيئا، لكن محمدا أخبره بأنهم كانوا ينتظرون قدوم عائلة مختار، حتى يذهبوا إليه في زيارة جماعية، ويقطفون هناك ما بقي من ثمار بستانه.

في صباح اليوم التالي، خرج أفراد العائلات الثلاث كلهم. يقصدون ذلك الكوخ، فكان الرجال محمد ومختار وعلي، يسيرون في الأمام. تتبعهم النساء ثم الأطفال الصغار، الذين كان إبراهيم وسالم، يساعدونهم على السير حتى وصلوا.

لم تتمالك عائشة نفسها من البكاء، حين دخلت البستان. وحامت حولها ذكريات الطفولة البعيدة، التي عاشتها هناك مع أمها وأبيها وتوقفت وسطه. وراحت تجيل عينيها الدامعتين في أرجائه. وكأنها تبحث عن طيف أو خيال أبيها الشيخ، بعباءته البيضاء

وابتسامته الخفيفة التي لم تكن تفارقه، وهو يحدثها أو يستمع إليها.. وتوقفوا جميعا عند قبر خالد لقراءة الفاتحة عليه. وتحدثوا عن إعادة دفن رفاته، في مقبرة المدينة، فيما بعد ثم دخلوا إلى الكوخ. وكان أول ما لفت انتباه عائشة هو مصحف أبيها الذي وضعه إبراهيم، فوق رف المسرجة. فأخذته وفتحته، ونظرت مدة قليلة إلى إحدى صفحاته، ثم أغلقته، وبقيت تحمله في يدها.. ثم نظرت إلى ذلك الأثاث البالي، الذي كان إبراهيم قد نظمه.. وعادت بها الذكرى إلى الوراء البعيد.. هذا فراشي.. وهذا فراش أبي المرحوم وهذا فراش إضافي، كنا نستعمله للضيوف. أو ينام عليه بعض الجرحى.. هذه الأواني الطينية التي كنا نطبخ فيها طعامنا. هذا الموقد الذي كنت أجلس بالقرب منه، مع أبي ويحكي لي الكثير من الحكايات. ثم التفتت وقرأت تلك الوصية، التي كانت على الجدار وابتسمت لسالم. وقد زال عنها بعض الحزن الذي سببته الذكريات. وهي تقول:

– أرأيت؟ كيف أن الكتابة تبقى، ولا تمحى. وتأتي بنتائجها ولو بعد زمن طويل.

واغتنم إبراهيم تلك الابتسامة. وسألها عن ذلك السرداب، الذي وجدوا بابه مغلقا من الداخل. وهل له باب خارجي؟ فأجابته عائشة. بأنه له دهليز محفور تحت الأرض وينتهي بباب مموه بشجرة صغيرة، في ذلك الوقت، وبعض الحشائش. على جرف صغير. وقد تم حفر ذلك الدهليز، للاحتياط من العدو الذي كان أبي يتوقع محاصرتهم للكوخ في أي وقت، وبذلك يستطيع أن يخرج الجريح، الذي يكون عنده، من ذلك الباب ويخبئه في الغابة في أي مكان.

ثم خرج جميعهم، وهناك لفت إبراهيم انتباههم، إلى تلك الأجزاء التي كانت متناثرة من ذلك المجسم الذي كان يحوي الكنز، وحاول جمع ما استطاع منها بيديه، وهو يبين لهم مهارة خالد الذي استطاع صناعته، من مواد بسيطة. وهنا تحدث مختار كثيرا عن صديقه خالد، وهو ينظر إلى قبره، وأخبرهم بأنه، بالإضافة إلى اهتمامه بالقراءة والكتابة فقد كان مهتما بصناعة بعض الأشكال الجميلة، من الطين أو الجبس. وكثيرا ما كان يصنع بعض المجسمات للحيوانات، التي كانا يصطادانها مع بعض. وكان يحاول أثناء ذلك أن يتفنن فيها، ويخرجها تشبه شكلها الحقيقي، وعلى درجة كبيرة من الإتقان.

كانت الطبيعة تهديهم، في ذلك اللقاء، أريجها وعطرها الذي كان يفوح من براعم أشجارها. وقد أحسوا جميعا، بخفة في أرواحهم داخل مملكتها الواسعة، وفضائها الرحب. واكتشفوا تلك البهجة التي كانت غائبة عنهم في المدينة من انسجام في الألوان وفي الثمار. في محيط من الصمت، والهدوء الذي تنشرح له النفس ويدعو إلى التأمل والتفكير، في البسطاء الذين كانوا يسكنون الأكواخ، ويعيشون على قدر يسير من الرزق دون أن يعكر ذلك عليهم صفو سعادتهم، والاستمرار في تأدية رسالتهم. وحرصهم على فعل الخير، وإيثار غيرهم على أنفسهم...

ثم انتشروا بين أشجار ذلك البستان، الذي أعجبوا بتنسيقه وبثماره. واشتركوا في قطفها في مدة قليلة، بعدها تحلقوا تحت تلك الشجرة، وأخرجوا ما حملوه من طعام، كانوا قد أعدوه في البيت، وتناولوا غداءهم في جو عائلي مليء بالفرح. ولم ينسوا تلك

الطيور المهاجرة التي جاءت وقت الظهيرة، فأشركوها في احتفالهم، ونثروا لها الكثير من الحب الذي حملوه معهم، وبقوا هناك حتى المساء ثم عادوا، وتركوا ذلك الكوخ يركن إلى صمته، وسط الطبيعة التي كانت تعج بالحياة.. وينتظر من يكتشفه من جديد، ويعيش داخله مغامرة أخرى.

في ليلتهم الأخيرة، كانوا قد قرروا العودة إلى بيوتهم. فاجتمع أفراد العائلات الثلاث كلهم بعد العشاء في قاعة الجلوس. وأقاموا سهرة، ليفترقوا بعدها في صباح اليوم التالي، وتعود عائلة مختار إلى العاصمة.. كما تعود عائلة علي إلى قسنطينة.. دعوا خلالها بعضهم البعض، لزيارات متبادلة بينهم. وتبادلوا بعض الهدايا التذكارية بينهم وهنا نادت عائشة إبراهيم، وأجلسته بالقرب منها، ثم فتحت حقيبتها، وهي تقول له:

– لقد أحضرت لك هدية خاصة.

ثم أخرجت منها تلك الكتلة من الورق المقوى. الذي كانت تلف الكنز داخل المجسم. كانت لا تزال مكورة على شكلها، الذي كانت عليه عندما تكسر. وبقيت آثار الجبس اليابس عالقة عليها. وسلمتها له. وهي تقول له:

–تلك الدراهم التي جئتماني بها. أنت وسالم. كانت كافية لإجراء تلك العملية. وما بقي منها احتفظت به لك أنت يا إبراهيم. جزاء لك على وفائك، وأدائك للأمانة وتفانيك في العمل.

فتسلمها إبراهيم منها، وشكرها على ذلك كثيرا، ثم عاد إلى مكانه، وفتح تلك الورقة وأخرج منها تلك القطع الذهبية. وعدها فوجدها، خمس قطع، نصيبه من ذلك الكنز الذي تركه خالد لولده

سالم. ففرح بها فرحا شديدا، وأعاد شكر عائشة على كرمها تجاهه من جديد. ووضع تلك الدراهم في جيبه، وترك فوق الطاولة تلك الورقة المقواة، التي كانت مقوسة من شدة طيها مدة طويلة من الزمن. وهنا ترحم مختار على روح صديقه خالد، الذي كان قد طوى تلك الورقة بيديه بعدما وضع داخلها تلك الدراهم. ثم نهض من مكانه إليها، وأخذها من فوق الطاولة التي كانت تتوسط المجلس، يريد الاحتفاظ بها كإحدى الذكريات المميزة من خالد. وراح يسويها على الطاولة براحة يده، حتى تعود إليها استقامتها. وينزع عنها بأصابعه ما قد لصق بها، من فتات الجبس، الذي كان يحيط بها. ثم قلبها على وجهها الثاني، ليجد عبارة كان قد كتبها عليها خالد من الداخل، فلفت انتباه عائشة لتلك الكتابة، التي لم تتفطن لوجودها من قبل. فأمسكتها من يده. وتأملتها للحظات. وهي صامتة لا تنطق. وقد وجدتها مكتوبة بنفس الخط المعوج الذي كتبت به تلك الوصية.. ثم ظهرت على شفتيها ابتسامة خفيفة، وهي تلقي بنظرة دائرية على كل الجالسين حولها. وحين التقت نظرتها تلك بعيني سالم وإبراهيم اللذين كانا يجلسان بجانب بعضهما، قرأت بصوت متهدج ما كان خالد قد كتبه عليها، وفيه يقول:

(إذا كان الكلام من فضة، فالكتابة من ذهب).